أدبلينا

رواية

فاطمة الزهراء بدوي

رواية: أديلينا

تأليف: فاطمة الزهراء بدوي

الناشر: أدباء ٢٠٠٠

الطبعة الأولى ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٨\٢٧٩٤٤

تصحيح لغوي: نسرين محمد يوسف

إخراج فني: شادي الكردي

تصميم الغلاف: محمد علي

المدير العام : منة عامر

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع-٢٠١٧

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أونقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقةخطية من الناشر مقدما

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

0020/01020812429 –01099654718

أديلينا

عندما تتحدث اللوحات بروحِها

الأهداء

غاليتي الغائبة الحاضرة .. أعلم أنكِ تحيطين علما بأحوالي فقد جئتِني مُهنئة بهذه الرواية في منامي ..

ِ أمي الحبيبة مها يا من أشعر أنكِ لازلتِ تدعمينني بدعائك .. تمنيت لو أنك حاضرة ..

أبي الحبيب أحمد بدوي دمت داعما، ولكم أتمنى أن تكون فخورا ..

زوجي الغالي حسام .. دمت حبيبي و سندي يا من لو جُبت العالم لما وجدت مثلك ..

أخي الحبيب محمد .. أنت من حضر ولادة الفكرة .. سرت معي خطوة بخطوة لتكتمل ..

منة عامر أختي وصديقتي أنتِ سبب ولادة و اختمار فكرة تحويلها لنسخة ورقية فلكِ كل الشكر ..

كابتن أحمد ابراهيم .. دمت مشجعا و داعما .. دمت أخا.. شجعتني لاتخذ خطوة النشر الورقي المنفرد

رامي فخري (رامي و يجعله عامر) أنت سبب اختلاف هذه النسخة عن مثيلتها الالكترونية ، انت من لام عليّ تأخر خطوة النشر الورقي المنفرد.. أدامك الله مشجعا داعما ناصحا ..

وسام عبدالوهاب(وزة) كنتِ معي خطوة بخطوة .. فصل بفصل، ناصحة وموجهة وناقدة لولاكِ ربما لما انتهيت في الوقت المناسب .. أدامكِ الله أختا و نعمة ..

لكل من وثق في قلمي، شجعني و آمن بيّ أكثر مما فعلت بنفسي ..

إليكم جميعا أهدي ابنتي بكرية الورق أديلينا، واتمنى ان أكون على قدر الثقة ..

فاطمة الزهراء

١-بورتريه

"وهـــذه أيتهـــا الســـيدات والســـادة القطعـــة الأخـــيرة لمـــزاد الليلة،لوحـــةتعود إلى مـــا يقـــرب مـــن ثلاثمائـــة عـــام مضـــت؛ حســـب تقـــدير خبرائنا..

اللوحـــة تمثـــل بورتريـــه لســـيدة مـــن الطبقـــة الراقيـــة في تلـــك الفـــترة الزمنيـــة، وصـــاحبتها"دورثي كاست"حســـبما وجـــد في الســـجلات، وغـــير معـــروف عـــلى وجـــه الدقـــة التـــاريخ الـــذي رُسِـــمت فيـــه، اللوحـــة تحمـــل توقيع"تومـــاس هدســـون" أشـــهر رســـامي البورتريـــه في "لندن"خاصـــة في الفـــترة مـــن (١٧٥٥-١٧٤٥) للمـــيلاد، يبـــدو وذلـــك حســـب رأي خبرائنـــا أيضـــا ، أنهـــا لوحـــة مـــن بدايات"هدســـون"، وربمـــا قبـــل أن يتتلمـــذ عـــلى يـــد"جوناثان ريتشاردســـون"...لكن هـــذا لا يمنـــع كونهـــا قطعـــة فنيـــة أثرية قيمة؛ لذا نفتتح المزايدة لراغبي اقتنائها ...".

غـــادرت المـــزاد حـــاملًا غنيمتـــي بعـــد أن دفعـــت فيهـــا مبلغًـــا لا بـــأس بـــه، لكننـــي لم أهـــتم كثـــيراً لأمـــر النقـــود قـــدر اهتمامـــي بالحصـــول عـــلى تلـــك اللوحـــة، شيء مـــا فيهـــا جـــذبني إليهـــ ا، شيء مـــا ألـــح عـــليّ ألا أغـــادر دونهـــا .

كان بورتريه لفتاة شابة ذات وجه بيضاوي مضيء،رقبة طويلة نسبيًا وشعر داكن زادها إشراقًا، ملامحها دقيقة،أنف صغير، فم وردي اللون...

ترتدي ثوبًا فضفاضًا من أسفل الخصر- أظنه ذهبي اللون،لست بارعًا جدًا في تمييز درجات الألوان- أكمامه مكونة من طبقتين، الأولى من نفس قماشة الثوب، وتصل إلى ما قبل منتصف ذراعيها بقليل، الطبقة الثانية بدت لي أفتح لونًا،وأعطتني انطباعًا أنها من الدانتيل الثقيل .

يزين الثوب من عند منتصف الصدر عقدة(فيونكة) كحلية اللون، يتصل بها مابدا لي كسلاسل من اللآلئ .

من عند الكتف الأيمن، انسدل وشاح خفيف ذو لون أزرق خفيف به نقشات ذهبية اللون، وفي يدها اليسرى كانت تحمل زهرة وردية اللون، تشبه الأزهار في السلة أسفلها،التي تمسك بها يدها اليمنى.

الخلفية هي ما أثارت استغرابي؛ فقد كانت تبدو كجدار صخري، وفي جانب اللوحة الأيمن بدت السماء بلون الغروب .

رغم أنها قد تبدو عادية، إلا أنها أسرتني، أنا سعيد حقًا بامتلاكها...

علقتها في مدخل الشقة التي أسكنها؛ ولأجعلكم تتخيلو معي.

عند الدخول من الباب هناك ممر قصير في نهايته توجد طاولة أشبه ب(كونسول) لكن بدون مرآة، سطحه من الرخام، علقت غنيمتي من المزاد أعلاها، بدا وكأن أحدهما خلق للآخر ليكمله...

هـــي ليســـت شـــقة كبـــيرة، لكنهـــا تكفينـــي كشـــاب عَـــزْب، وإن كـــان إيجارهـــا مرتفعًـــا نســـبيًا، لكـــن هـــذه ضريبـــة الســـكنى بـــالقرب مـــن ضواحي لندن.

نســـيت أن أعـــرفكم بنفسي ـــ اسمي"يوســـف آدم"، مصرـــي الجنســـية، أعـــيش ب"لنـــدن" منـــذ ســـنوات، أعمـــل طبيبًـــا، لكـــن الفـــن هـــوايتي وعشـــقي الأول .. إذا أردتـــم أن تبحثـــوا عنـــي فســـتجدونني في متحـــف مـــا، معـــرض فنـــي، أو حتـــى مـــزاد كالـــذي عـــدت منـــه لتـــوي، إذا لم أكـــن في أيهـــم، إذن ســـتجدونني في مشفى"ســـانت مـــاري" في حي"بـــادينجتون"، نعم مشفى"سانت مارى"الشهير حيث أُكتُشِفَ البنسلين.

وحيـــث معمل"ألكســـندر فلمـــنج"- مكتشـــفة الـــذي أصـــبح متحفًـــا مفتوحًا للزوار..

العديـــد مـــن أطبـــاء هـــذا المشـــفى نـــالوا شـــهرة لا بـــأس بهـــا، حتـــى إن أحدهم حاز على نوبل بفضل أبحاثه...

مـــن يـــدري، ربمـــا يومًـــا مـــا أكـــون قـــد صرت ذائـــع الصـــيت بفضـــل هـــذا المشفى- بعد فضل الله تعالى طبعًا-...

ياللهول...لقـــد أطلـــت الحـــديث ولم أنتبـــه للوقـــت، تلـــك العـــادة الحمقـــاء بالتحـــدث مـــع نفسي ـــ بصـــوت عـــالٍ ســـتذهب بعقـــلي حـــتمًا، حســـنًا عـــليّ أن أسرع للحاق بموعد مناوبتي.

لعـــدة أســـابيع مضـــت ســـيطرت ملامـــح صـــاحبة"البورتريه"على خيـــالي؛ حتـى أننـي وجـدت نفسي- متلبسًـا برسـم ملامحهـا عـلى كـل مـا تقـع عليـه يدي،رغم أنني لست بارعًا بالرسم حقًا!!

-"إنهـا حسـناء يـا "جـو"... تـرى مـن هـي التعيسـة التـي أوقعهـا حظهـا معك؟"

قهقهت عاليًا قبل أن أقول:

-" هي ليست أحدًا أعرفه في الواقع يا"ألڤين"."

بتهكم رد عليّ قائلًا:

"حقًا؟!! .... إذن لم كل أوراقك تحمل ملامحها؟"

- "صـدقًا... أنـا لا أعـرف حتـى لهـا اسـمًا ... ربمـا فقـط لأننـي أراهـا أمـامي طـوال الوقـت... فحفظـت ملامحهـا ورسـمتها دون وعـي منـي..."

نظر"ألڤين"إليّ وعلى فمه ابتسامة ساخرة، ثم قال:

"وأيـن تـرى تلـك الحسـناء طـوال الوقـت، إن لم يكـن لـديك مـانع خـذني معك؛ وسأعرف اسمها خلال خمس دقائق على الأكثر".

ثم غمز لي وهو يقول:

"وسآتيك أيضا برقم هاتفها إن أردت....".

تراجعـت بظهـري لأسـتند عـلى ظهـر المقعـد، واشـحت لـه بيـدي وأنـا أقول ضاحكًا :

-"تعلم أنني لست من ذاك النوع يا صديقي، لست من ذاك النوع.... وأتحداك إن استطعت أن تخرج منها كلمة فهي لوحة "بورتريه" معلقة في مدخل شقتي".

اعترت الدهشة ملامح"ألڤين"لبضع ثوانٍ - حتى أن فكه تدلى قليلًا بشكل مثير للضحك حقًا -ومن ثم انخرط في الضحك حتى دمعت عيناه،وخرجت كلماته من وسط الضحكات بصعوبة وهو يقول:

-"يالك من بائس يا"جو"،أنت واقع في حب لوحة، يا لك من بائس، علينا أن نجد لك فتاة حقيقة يا رجل..".

***

تمضي الأيام برتابتها المعتادة، وخيال ملامح"جاين دو" لا يفارقني، تتساءلون من هي"جاين"؟ إنها صاحبة"البورتريه"...نعم أطلقت عليها اسمًا، لا تسخروا مني؛"جاين دو" اسم يُطلق على أي فتاة مجهولة الهوية هكذا جرى العرف هنا.

لكثرة ما انشغلت بها وجدت أنه من اللائق ان أطلق عليها اسمًا.

تلك ربما هي المرة الأولى التي يستحوذ عليّ فيها عمل فني لهذه الدرجة، حتى أنني بحثت في الشبكة العنكبوتية عن أعمال أخرى لذاك الرسام -"توماس هدسون"- فوجدت له العديد من لوحات"البورتريه"والعديد منها أكاد أجزم أنني ألمح فيه ملامح "جاين".

-" كيف حال"جاين" اليوم يا"جو"؟"

تجاهلت النبرة الساخرة في صوت صديقي"ألڤين"وأنا أجيبه :

-"في الواقـــع لقـــد أمســـت تـــزورني في أحلامـــي الآن، هنـــاك شيء عجيـــب حقًا يتعلق بها، لست أدرك ما هو، لكني على يقين بذلك...".

-"صـــدقني"جو"أنت فقـــط تحتـــاج لمزيـــد مـــن العلاقـــات مـــع أشـــخاص على أرض الواقع، بعيدًا عن اللوحات والمنحوتات الفنية".

كدت أعلق لكنه قاطعني مسرعًا وكأنما سمع ما كنت أفكر فيه :

-"وبعيدًا عن مرضاك أيها المتحذلق".

- "بعيـــدًا عـــن المـــزاح، لقـــد أتـــت إليّ البارحـــة في منـــامي، ولأول مـــرة تحدثت إليّ كلمتين فحسب: أعثر عليّ...".

-"بعيدًا عن المزاح؟؟!!

مـا قلتـه بعـدها لا يتفـق يـا صـديقي مـع تلـك العبـارة، أيـن سـتعثر عـلى فتاة وجدت منذ ثلاثمائة عام على الأقل؟!".

-"لا أدري حقا...".

***

٢- جاين دو

تلك الليلة باردة حقًا، الأمطار تتساقط منذ وقت طويل، المساء قد حل وأنا الآن في طريقي لمحطة القطار المار بالأنفاق لأعود لمنزلي،بعد أن عبرت الطريق للجهة المقابلة شيء ما ألح عليّ أن التفت للخلف وهناك رأيتها،أنا و اثق تمامًا أنها هي، أو ربما هي من نسلها، في كل الأحوال تلك الواقفة ترتجف بردًا وقطرات الماء تسيل على وجهها، تلصق خصلات شعرها بجبينها كانت نسخة منها، من"جاين".

وجدتني أتقدم نحوها،حين اقتربت منها رأيت الحيرة تطل من عينيها، تتلفت حولها كطفل تائه يبحث عن أمه...

-"أيمكنني مساعدتك آنستي؟".

ترددتْ لوهلة قبل أن تجيب، شعرتُ وكأنها تترجم كلماتي قبل أن تنطق رغم أنني لم أتحدث سوى بالإنجليزية.

-"أ.... أنا لا أعلم أين انا!!!".

- "حسنا...لا بأس..هذا أمر بسيط، أنتِ في حي"بادينجتون"..."بلندن"...ماهي وجهتك؟وسأوصلك إن أردت"

تلفتت حولها مجددًا،ومن ثم قالت:

-"أنـا لا أعلـم مـا الـذي جـاء بي إلى هنـا.....ولا أعلـم حتـى .... مـن أنا!!!!".

ظللـت أحـدق بهـا لـبعض الوقـت ذاهـلًا، لا بـد وأنهـا ظنـت أننـي معتـوه مـن نـوع مـا...حتمًا كنـت أبـدو معتوهًـا وأنـا فـاغر فمـي بهـذا الشـكل، لكننـي معـذور،فها هـي ذات الفتـاة في لوحـة اقتنيتهـا، نفـس الملامـح، نفـس العيـون، الأنـف، الفـم الشـعر،حتى ملابسـها تبـدو وكأنمـا جـاءت من نفس عصر اللوحة الزمني.

لوهلـة ظننـت حقًـا أنـه حلـم آخـر مـن تلـك الأحـلام التـي تـزورني فيهـا مؤخرًا، لولا أني انتبهت على سؤالها:

-"أتسـتطيع مسـاعدتي؟ أيمكنـك معرفـة مـن أكـون ومـا الـذي أفعلـه هنا؟".

أجبتهـا في سرعـة وكأنمـا كنـت أنتظـر تلـك الفرصـة، هـذا تمامًـا مـا كنـت أفكر فيه ولا أدري السبيل لطرحه.

-"بالتأكيد ... سأبذل قصار جهدي".

كان أول ما جال بخاطري أن على اصطحابها عائدًا إلى المشفى.

-"ما الذي عاد بك إلى هنا ؟!".

قالهـا"ألڤين" مـا أن رآني أدلـف مـن مـدخل المشـفى، حيـث كـان واقفًـا في مكتـب الاسـتقبال، وقبـل أن أجيـب كـان قـد انتبـه لوجـود "جاين"معي فهتف بدهشة بالغة :

-"ياللسماء!! لقد عثرت عليها...لقد عثرت عليها فعلا!!!".

التفتت إليّ"جاين" في حيرة وقالت :

-"عثرت عليّ؟!!".

فلوحت بيدي وأنا أقول لها :

-"لا تشغلي بالك به الآن..إنه محب للمزاح...".

كاد"ألڤين" أن يهمهم بشيء ما، لولا أن عاجلته قائلًا :

-"أريد إخضاعها لفحص طبي شامل...الفتاة فيما يبدو فاقدة للذاكرة...".

-"وهل تملك تأمينًا صحيًا ؟!".

-"يالك من متذاكٍ أقول لك أنها فاقدة للذاكرة ولا يبدو أنها تحمل أي هوية...".

-"ماذا عن...".

قاطعته في سرعة:

-"سأتحمل كافة التكاليف...لا تقلق بشأن ذلك...".

- "حسنًا إذا... كما تريد... ".

وأخذ يطبع بعض البيانات على الحاسوب أمامه، ويجري اتصالًا بالقسم الداخلي، بينما هي كانت لا تزال أسمى آيات الحيرة ظاهرة علي وجهها؛ تتلفت حولها بريبة وخوف، شعرت نحوها بالشفقة حقًا...

ماذا يمكن أن يكون أسوأ من أن تجد نفسك بلا هوية، بلا أشخاص مقربين يستطيعون إخبارك عنك،غريب في أرض غريبة،غريب حتى

عــن ذاتك،ولربمــا رأيــت في المــرآة انعكاســك ولم تتعــرف عليــه... كــم هــذا قاسٍ...

***

- "حسنًا.... يبدو لي هذا جليًا الآن يا صديقي...أنت منحوس".

ضحكت وأنا التفت ل"ألڤين" الذي كان يتكلم بجدية :

-"لمــاذا؟! ... أعنــي بالتأكيــد أنــا منحــوس لأنــك ربمــا صــديقي الوحيــد المقــرب منــذ وطئــت قــدمي هــذه الــبلاد...لكن بعــد معرفتــك بي طيلــة السنين الماضية، ما الذي جعلك تدرك هذا اليوم بالتحديد؟".

نظر إليّ نظرة تقول فلتحمد ربك أنني صديقك،ثم قال:

-"في البدايــة تنجــذب للوحــة...تقع في حــب صاحبتها...ترســمها...تحلم بهــا...ومن ثــم بمعجــزة مــا تلتقيها...لتجــدها فاقــدة للذاكرة....هــذا نحس صافٍ يا عزيزي".

مستنكرًا صحت :

- "لم أقــع بحبها...أنــا.... لا أعلم...لكننــي لم أقــع بحبها...لســت معتوهًــا إلى هــذا الحــد... أقــع بحــب فتــاة في لوحــة...لا أعــرف عنهــا شــيئًا...كلا... كلا...لست معتوهًا لهذه الدرجة..".

بسخرية قال:

"حسنًا.... إن كنت تظن ذلك...".

أردت تغيير دفة الحديث فسألته عما إذا كانت"جاين"ستمضي الليلة هنا، فأجاب أن نعم وربما تبقى لعدة أيام إلى أن تظهر نتيجة الفحوص.

لم أجد داعٍ لبقائي أكثر من هذا في المشفى،على أية حال فلا حاجة لي في الوقت الحالي،وإذا ما ظهرت أي مستجدات فلديهم رقمي وسآتي على الفور...

ذهبت لأودعها ولأطمئنها أني سأعو د لاحقًا،وأنها في أيد أمينة، عليها ألا تقلق وألا تحمل همًا...وتركتها بعد أن اطمأننت إلى أنها ستنام حتى الصباح، بعد أن حقنوها بمهدئ يساعدها على النوم.

شعور غريب ذلك الذي انتابني وسيطر على كياني، تلك السعادة العارمة لرؤيتها بصدفة غير محسوبة،تلك الحماسة لاكتشاف من تكون...!!!

لماذا أشعر وأنها ليست كأي فتاة أخرى؟ لماذا كل هذا الاهتمام بها؟ لم أعهدني هكذا قط، ترى ما السبب؟

أتراني حقًا وقعت في حبها كما قال"ألفين"؟... لا... لا... هذا سخف... إنها غريبة عني كليةً...

ربما هو الفضول والظن بأنها ربما ترتبط بشكل ما ب"البورتريه"...

"البورتريه"، ذلك لغز آخر،كيف يمكن أن تتطابق ملامح شخصين لهذه الدرجة، الفارق بين وجودهما بضع مئات من الأعوام؟!!

تبًا لكل ذلك التفكير، رأسي تكاد تنفجر من الصداع، كل خلية بجسدي الآن تصرخ طالبة النوم، وعقلي لا يكف عن العمل، هلا هدأت يا هذا وأفسحت المجال قليلًا للسلطان...

ظهرت نتيجة الفحوص الطبية، لا شيء مريب على الإطلاق،عضويًا هي سليمة تمامًا...

لكن... ذاكرتها ممحوة تمامًا، صفحة بيضاء لا شيء فيها ولا حتى ومضات عمن تكون أو من أين أتت...،وكأنما انبثقت من العدم!!

لا أدري لِمَ، لكنني شعرت نحوها بالمسئولية...

كُتِبَ لها تصريح خروج من المشفى، مع توصية بالخضوع لجلسات نفسية؛ لعلها تساعدها على استرجاع أي لمحة من الماضي أو الحاضر القريب... وكما يبدو جليًا، لم يكن لدى"جاين"مكان لتقيم فيه، أو مصدر رزق تعيش منه...

وكما قلت.. أنا أشعر نحوها بالمسئولية؛ لذا عرضت عليها الإقامة في منزلي،ولو بشكل مؤقت، فقط حتى تستعيد ذاكرتها أو تجد عملًا ومنزلًا آخر، أيهما أقرب.

في البداية،رفضت بذعر غير مبرر من وجهة نظري، فالإقامة المشتركة وتقاسم الإيجار أمر شائع هنا، رغم أن هذه لم تكن نيتي، فبالرغم من أنني أعيش هنا منذ زمن،وقد اكتسبت بعض طباعهم،إلا أنني لازلت رجلًا شرقيًا، لا أقبل على أي أنثى ما لا أقبله على أختي .

لا أقبل أن أحوم حول الحمى...أوضحت لها أنها -إن قبلت- فستقيم في شقتي،وأذهب أنا للإقامة في مكان آخر، لن أقيد حريتها،أو أتعرض لها بشكل يضايقها بأي حال من الأحوال...كانت لا تزال مترددة، لكنها قبلت على مضض...أظنها أدركت أنه لا حل آخر أمامها سوى الشارع أو ملاجئ المشردين، ولا هذا ولا ذاك -من وجهة نظري- يحفظ لها كرامتها...

-"ألڤين..."

ابتسم ليّ بخبث وقال:

-"هات ما ورائك"جو"....تريد شيئًا ما...أستطيع أن أشتم رائحة ذلك في الهواء".

ضحكت وأنا أقول :

-"صرت تحفظني"ألڤين" ... في الواقع كنت أفكر لو أمكنك أن تستضيفني في منزلك لبعض الوقت،"جاين" ستقيم في منزلي، ولا يصح قطعًا أن أبيت هناك...أوحتى مجرد أن أتواجد".

رفع حاجبه وقال:

-"ستلعب دور النبيل إذن...ها...لا بأس.. بعض الفتيات يردن فارسًا ليقعن في حبه ....".

قلت مستنكرًا :

-"أهذا كل ما يشغل بالك؟!".

قهقه عاليا ومن ثم قال:

-"بل ما يشغل بالك أنت...أنا لدي خطيبة تشغلني".

- "حسـنًا أيهـا العابـث...أخبرني..هـل توافـق أم مـاذا؟...أم أن عـليّ البحث عن نزل ما ؟".

- "تعلـم أننـي لا أرفـض لـك طلبًـا...وفي الواقـع أنـت كنـت في المـاضي رفيق سكن جيد".

***

-"مرحبا"جـاين".... كيـف حالـك اليـوم؟ لقـد أذن لـك الأطبـاء بالخروج".

-"جاين؟!"...

-"إنه اسم مؤقت فحسب حتى تستعيدي ذاكرتك...".

-"أهـو كـذلك...حسـنًا...أظـن أني بخـير...لازلـت تائهـة وأشـعر بالحيرة،لكن..".

-"هـذا أمـر اعتيـادي...سـتكونين عـلى مـا يـرام...سـأحرص عـلى هذا...لقد أخذت على عاتقي مسئولية مساعدتك".

-"لسـت أدري مـا أقـول... تـرى لمَ كـل هـذا الاهـتمام...فحسـب قولـك أنـت لا تعرفنـي...لم تلتقينـي مـن قبـل... رغـم أن كـلام صـديقك قـد أعطاني إحساسًا مغايرًا...".

لم أدرِ مـا يفـترض بي قولـه ردًا عـلى سـؤالها،انا أصـلًا لا أعـرف سر اهتمامي المبالغ فيه بها...

شعرت بالحرج حقًا وتلعثمت الكلمات على لساني، وفيما يبدو شعرت هي بذلك -وكيف لها الا تشعر بهذا وأنا أبدو كالطماطم الناضجة- فابتسمتْ بخجل وهي تقول محاولة إزالة الحرج عني :

-"ربما التقينا في عالم الأرواح...هذا يفسر الأمر...أليس كذلك؟".

هززت رأسي موافقا وأنا أردد ما قالت:

-"بلى...ربما التقينا في عالم الأرواح...هذا تفسير مقنع".

نعم ربما يكون الأمر كذلك، ربما التقيتها عند نشأة الخليقة في عالم الأرواح،وكما سمعت كثيراً في صغري(الأرواح جند مجندة...) ربما تآلفت روحانا في وقت سابق لخلقنا.

عدت بها إلى منزلي،بعد أن مررنا لابتياع بعض الملابس لها وما إن دلفت من المدخل حتى تسمرت أمام اللوحة...

فبادرتها بقولي:

-"اقتنيتها منذ فترة قصيرة ...جميلة ...صحيح؟".

-"إنها تشبهني تماما!!...لهذا عندما رآني"ألڤين" قال إنك عثرت عليّ!!"

-"في الواقع...نعم..كان ذاك هو السبب...".

-"ألهذا أنت مهتم بمساعدتي؟...لأنني أشبه لوحتك؟".

في الحقيقة،لم أكن أدري إن كان هذا هو السبب فعلًا،لكنني ارتأيت أنه سيكون جوابًا مناسبًا يجنب كلينا الحرج.

-"ربما...لست أدري حقًا".

(تبًا يالي من أحمق، لمْ يتفوه لساني بما أشعر به دونًا عما أمليه عليه...).

اقتربت"جاين" أكثر من اللوحة تتفحصها، ومن ثم وجدتها تسحب وشاحها الذي كان ملتفا على رقبتها،وتمسك به بالقرب

من اللوحة...وشاحًا ذا لون أزرق خفيف وبه نقشات ذهبية اللون.

-"أظن اهتمامك في محله....أنا أملك ذات الوشاح المرسوم في اللوحة...

وهي تملك ملامحي...من الصعب الاعتقاد بأن تلك مجرد صدفة...".

-"هذا البورتريه له صلة ما بكِ...".

-"هذا مؤكد...".

والتفتت إليّ لنقول في صوت واحد :

-"علينا معرفة المزيد عن صاحبة هذه اللوحة.....".

تبادر إلى ذهني أن أكثر مَنْ يفيدنا بشأن اللوحة هو"أدريان جونز"، الشاب في قاعة المزاد حيث اشتريت اللوحة،فهو عادة من يقوم بالأبحاث المتعلقة بالتحف المعروضة في المزادات التي يقيمونها..

هاتفته قائلًا إنني أرغب بلقائه بشأن آخر لوحة اقتنيتها من قاعة المزادات التي يعمل بها...

-"أقسم لك سيد"آدم"...إنها أصلية وتستحق كل قرش دفعته فيها...أنت عميل دائم ولا يمكن أن أبيعك شيئا مشكوك في أمره...".

-"لا لا...ليس الأمر هكذا...أرغب فقط في معرفة مزيد من المعلومات عن صاحبة"البورتريه"...دورثي كاست".

-"لست أدري إن كان لدي ما يفيدك...لكن ...تعال قابلني وسأخبرك ما أعرفه".

لم نكذب خبرًا وكنا هناك في قاعة المزادات - أنا و"جاين"- قبل الموعد بساعة إلا الربع...

شعور مختلط انتاب كلينا، كان هذا واضحًا في ملامح وجهينا، حماسة وتوتر...!!

-"أتظنه سيخبرنا شيئًا مفيدًا؟ أعني...هل...".

صمتتْ تاركة تساؤلها مبتورًا....فأكملت أنا قائلًا :

-"هل أظن أنكِ"دورثي كاست"؟"

نظرت إليّ في دهشة وهمت بقول شيء ما، إلا أنها أطبقت شفتيها مجددًا.

-"حسنًا... سيكون هذا ضربًا من الخيال صحيح؟...لكن...".

-"لكن ماذا؟".

-"أحيانًا الواقع يكون أغرب من الخيال".

لم أدرِ من أين جاء ذلك الهراء الذي تفوهتُ به،كيف لها أن تكون "دورثي"التي عاشت قبل مئات السنين...

لمَ اتفوه بالحماقات في حضورها؟،عجبًا إن لها تأثيراً غريبًا عليّ من قبل حتى أن أقابلها...

أنقذني من أفكاري وصول"أدريان جونز".

-"إذن ...ما الذي ترغب في السؤال عنه؟".

-"كل ما تعرف عن تلك اللوحة المسماة ب"دورثي كاست"...من هي صاحبتها ؟؟...نسبها...أي شيء عنها على الإطلاق...".

-"لست أعلم عنها الكثير في الواقع...تاريخ رسم اللوحة غير معروف على وجه التحديد...توماس هدسون- الرسام - اشتهر بكونه رساما ل"بورتريهات" الطبقة الأرستقراطية في زمنه...في الفترة من ١٧٤٠ - ١٧٦٠....وكان أوج نجاحه ف"لندن"في الفترة من ١٧٤٥- ١٧٥٥ سرت بعض الإشاعات عن وجود مذكرات له... وحسبما أعلم فإن أكثر مَن يفيدك هو أمين متحف"بريستول"... فهو يمكنه أن يؤكد لك وجود تلك المذكرات من عدمه...وإن وُجِدت حقًا فهو سيعلم أين هي...وقد تكون في متحف بريستول ذاته...".

-"وما الذي سأستفيده بمذكرات الرسام ؟!!".

كاد أن يجيب لولا أن سبقته"جاين" قائلةً :

-"لعله أتى على ذكر صاحبة اللوحة فيها "جو"."

-"السيدة محقة... هذا ما كنت سأقوله تمامًا...أ... عذرًا سيدتي..هل التقيتك من قبل؟! أشعر أن وجهك مألوفًا لي".

- "حسنًا.. أشكرك على وقتك"أدريان"...لا تنس إبلاغي في حال وصول تحف فنية قيمة أخرى إليكم...هيا"جاين".. علينا أن نرحل".

-"بالتأكيد سيد"آدم"...سنكون على اتصال".

-"إذن...ما التالي؟".

-"سأحجز تذكرتي قطار إلى"بريستول".

***

٣- مذكرات توماس هدسون

طـــوال الطريـــق إلى"بريســـتول" كانـــت تـــراه يخـــتلس النظـــرات إليهـا...تلـك النظـرة في عينيـه، لم تـدرِ كيـف تفسرهـا، ينظـر إليهـا وكأنـه لا يـرى سواها،يُشـعِرها بالأمـان وكأنمـا مجـرد نظراتـه تحاوطها،تحميهـا من المجهول الذي فجأة وجدت نفسها فيه...

كانـت تفكـر في أنـه تلقفهـا تائهـة وحيـدة، تنـتفض بـردًا ومنحهـا مـأوًى، ملاذًا آمنًا بلا أي مقابل...

وهـا هـو الآن يجـد السـعي لمسـاعدتها عـلى اكتشـاف مـن تكـون، في رأسها كانت تحدث نفسها قائلةً :

"عليّ إيجاد رابط ما يصلني بلوحة معلقة في شقته"...

تتسـاءل تـرى مـا الـذي يدفعـه لبـذل كـل ذاك الجهـد لمسـاعدة غريبـة تمامًا عنه؟ أهو الفضول فحسب؟ أيعقل هذا؟

ومـاذا عـن ذاك الشـعور داخلهـا؟ لِـمَ ارتاحـت لـه ونفـذت كـل مـا طلـب لمَ قبلـت الـذهاب معـه للمشـفى تلـك الليلـة؟ مـا أدراهـا أنـه لـن يمسسها بسوء؟ لربما كان يخدعها ؟

تساؤلات عدة دارت بخلدها...

"لكن قلبي هو من اقتادني، قلبي؟! أتراني وقعت في حبه؟ أم هو الامتنان لصنيعه معي وحسب؟".

اختلست هي الأخرى نظرة سريعة إليه،وسيم هو، لكن الأهم من ذلك أنه رجل، رجل حقًا لا مجرد ذكر، تصرفاته جميعها تشي بذلك...

قاطع حديثها مع نفسها بغتة حين قال :

-"حسنًا... هاقد وصلنا "بريستول"...أترغبين في تناول شيء ما؟ وجبة خفيفة... كوب قهوة أو فنجانًا من الشاي؟".

حاولت استجماع شتات نفسها بينما أجابته قائلةً :

-"لا... شكرًا لك...إذن...أتعرف أين يقع متحف "بريستول" ذاك؟!".

-"أجل...إنه في"كليفتون"... اختصارًا للوقت سنركب سيارة أجرة إلى هناك...هيا بنا.."

الكثير من الأشياء تشعرها بالغرابة،القطارات،القطارات المارة بالأنفاق وسيارات الأ جرة، السيارات عمومًا،الحواسيب،الهواتف النقالة...

في الواقع أغلب ما حولها كان يُشعرهابالغرابة، بالذعروكأنما هي المرة الأولى التي ترى فيها مثل تلك الأشياء، حتى المنازل تبدو بالنسبة لها شاهقة للغاية وكأنها عمالقة بانتظارالانقضاض عليها...

ثم المصعد!!!تلك العلبة المعدنية المغلقة الضيقة،التي كلما ركبتها شعرت أنها ستسقط في أية لحظة...

أهكذا يكون فقدان الذاكرة؟ تمسي طفلًا مذعورًا من كل ما هو مألوف لمن عداك ؟!!

هل معنى فقدان الذاكرة أنك تفقد كل ما عرفته يومًا؟ أم أن هناك ما يظل كامنًا داخلك لكنك تحتاج فقط الوقت لتراه وتدركه مجددًا؟!!

-"ها نحن ذا...لقد وصلنا "جاين" ".

كانت الساعة تقترب من ا لرابعة والثلث،كانا محظوظين فقد سُمح لهما بدخول المتحف، كان كبيراً حقًا...وبه أقسام متنوعة لم تقتصر على الفنون فحسب، كان هناك قسم للجيولوجيا وقسم للفن الشرقي وآخر لتاريخ"بريستول"،غير أن هناك قسمًا للتاريخ الطبيعي...

أما معرض الفنون فقد احتوى على أعمال من مختلف الفترات الزمنية،وقد كان المكان أشبه بالحلم بالنسبة ليوسف الذي تمتم بينه وبين نفسه بصوت غير مسموع قائلًا :

"لا بد وأن آتي إلى هنا مرة أخرى؛ لأتفرغ فيها لرؤية كنوز هذا المتحف، ربما يومًا ما بعد أن نعرف من تكون"جاين"!!"

توجها من فورهما إلى أمين المتحف الذي ما أن رآهما مقبلين نحوه حتى أشاح بيده قائلًا :

-"لقد أوشكنا على الإغلاق...تنتهي ساعات العمل الرسمية في تمام الخامسة ...أنصحكما بالقدوم في الغد، فلنقل في التاسعة صباحًا لتستطيعا أخذ جولة كاملة".

فبادره يوسف قائلًا :

-"في الواقع سيدي نحن هنا اليوم من أجلك أنت، ربما في وقت آخر سآتي من أجل تلك الجولة".

ضحك الرجل الذي بدا أنه اقترب من الستين رغم أن ملامحه فقط هي ما تشي بسنه وقال :

- "ربما أكون عجوزًا، لكنني لم أصبح بعد من معروضات المكان".

-"معاذ الله يا سيدي أن يكون ذلك مقصدي...في الواقع"أدريان جونز" قد أوصانا بك ...وقال إنك الوحيد القادر على مساعدتنا".

أومأ برأسه إيجابًا عدة مرات وهو يقول :

-"أها.."أدريان جونز"..الشاب من قاعة مزادات العاصمة صحيح؟".

-"أجل.. سيدي".

-"هو شاب مجد في عمله... إذن لابد وأنكما هنا من أجل تاريخ أحد الأعمال الفنية".

-"أنت محق مجددًا يا سيدي".

ألقى نظرة خاطفة على ساعة يده ثم قال:

-"حسـنًا...امنحـاني القليـل مـن الوقـت... فعـليّ الإشراف عـلى إغـلاق المتحف...انتظراني خارجا وسألقاكما"

-"حسنًا إذن...كما تقول...هيا بنا"جاين"".

لم يمـضِ الكثـير حتـى وجـداه قادمًـا نحـوهما، اقـترح يوسـف الـذهاب لمطعـم مـا أو لأحـد المقـاهي، فلربمـا يطـول الحـديث ولـن يرغبـوا في امضاء الوقت وقوفًا على أقدامهم،وقد كان...

لم يكـن يوسـف واثقًـا كيـف يمكـن أن يبـدأ الحـوار، لكـن أمـين المتحـف وفر عليه العناء حين قال :

-"إذن...أي الأعمال الفنية قد جئتما بشأنه؟".

-" "بورتريه" يحمل اسم "دورثي كاست" للرسام ...".

قاطعه قائلًا :

-" "تومـاس هدسـون"... أجـل.. أجـل سـمعت عـن هـذه اللوحة...وأظن أني قرأت الاسم-دورثي- في مكان ما في مذكراته "

في حماسة قالت "جاين":

-"إذن فالمذكرات حقًا موجودة".

نظر إليها مطولًا، ثم قال :

-"بالطبع موجودة.... و"دورثي" تلك مذكورة فيها..... كما ذُكر أيضًا اسم"أديلينا"...وتحدث كذلك عن محاكمات الساحرات التي انتشرت في وقت ما في تلك الفترة من الزمن".

كانت لا تزال عيناه معلقتين بها- مما أورث يوسف شعورًا عجيبًا بالغيرة، التي لا يدري لها سببًا منطقيًا- لذا فقد حاول تحويل بصره عنها إليه فقال:

-"أين هي تلك المذكرات إذن؟وهل يمكننا الاطلاع عليها وقراءتها؟".

نجحت الحيلة..والتفت نحوه قائلًا ببساطة :

-"إنها في "ديفون"...حيث مسقط رأس"توماس هدسون"... تحديدًا في مدينة "إكستر"...ويمكنكما قراءة نسخة منها هناك".

في صوت واحد ردد يوسف وجاين :

-"ديفون؟؟!!"

فأجاب ببساطة وهو يتراجع بظهره ليستند على ظهر مقعده :

-"أجل..."ديفون" ".

شعر يوسف بخيبة الأمل تعلو ملامحها،ونبرات صوتها وهي تنهض من على مقعدها وتقول:

-"شكرًا على وقتك سيدي".

فنهض هو الآخر ليلحق بها،حيا الرجل وذهب خلفها وما أن لحق بها؛ حتى ربت على كتفها وكأنه يواسيها قائلًا :

-"حسـنًا...يبـدو أننـا سـنركب القطـار مـرة أخـرى...ولكـن لـيس إلى"لنـدن"...لـيس بعـد...لم ينتـه الأمـر.. لازال هنـاك طـرف خـيط نتبعه".

"ديفـون"...الاسـم بـدا مألوفـا لأذنيهـا،هي مقاطعـة كبيرة،واحـدة مـن ثلاث أكبر مقاطعات"إنجلترا"...

ومـا يميزهـا عـن بـاقي المقاطعـات الإنجليزيـة أنهـا الوحيـدة التـي تطـل عـلى القنـاة الإنجليزيـة، وقناة"بريسـتول"في الوقـت ذاته،عاصـمة المقاطعة مدينة"أكستر"، وهي حيث يتوجهان الآن...

حـين وصـلا كانـت السـاعة قـد تخطـت السـابعة والنصـف مسـاءَ، توجـه يوسـف إلى نافـذة الاسـتعلامات وتبـادل بعـض الكلـمات مـع الموظـف هناك ثم قفل عائدًا إلى جاين...

-"يبدو أننا سنضطر للمبيت هنا الليلة"جاين" ".

- "لِمَ؟ ما الذي قلتماه هناك؟".

- "لقـد سـألت أيـن يمكننـي إيجـاد مخطوطـات تعـود إلى ثلاثمئـة عـامٍ مضـت،فأجاب إن فرصـتي الفضـلى في مكتبة"إكسـتر"، فهـي تحـوي قسـمًا للمـوروث الثقـافي ل"ديفـون" لكنهـا أقفلـت أبوابهـا الآن، نستطيع الذهاب غدًا في التاسعة صباحًا".

The Great Western Hotel

لا يبعـد عـن وسـط المدينـة سـوى كيلـومتر ونصـف تقريبًا،كـان لا بـأس بـه...في الواقـع لم يكـن مسـ تواه ليفـرق معهـما كثـيراً، كـل مـا أراداه

وجبة ساخنة يشبعان بها الجوع،وفراشًا دافئًا يُلقيان عليه بجسديهما المنهكين منذ الصباح..

أيا منهما لم يكن قد نال كفايته من النوم العميق، ربما هو الحماس أنهما ربما يقتربان من معرفة شيء ما، قد ينير لهما الدرب...!!

حتى تلك اللحظات التي غفلت فيها أعينهما رغمًا عنهما، حملت أحلامًا وتصورات عما يمكن أن يجداه...

استيقظا باكرًا والتقيا في بهو الفندق ومنه إلى المطعم الملحق، تناولا إفطارًا سريعًا وفنجاني شاي، وانطلقا في طريقهما إلى مكتبة "إكستر"...

في طريقهما مرّا بالشارع الرئيسي، كم بدا مألوفًا لجاين! شعرت وكأنها كانت هنا في وقت سابق من حياتها، تلك الطرز المعمارية والطرقات...

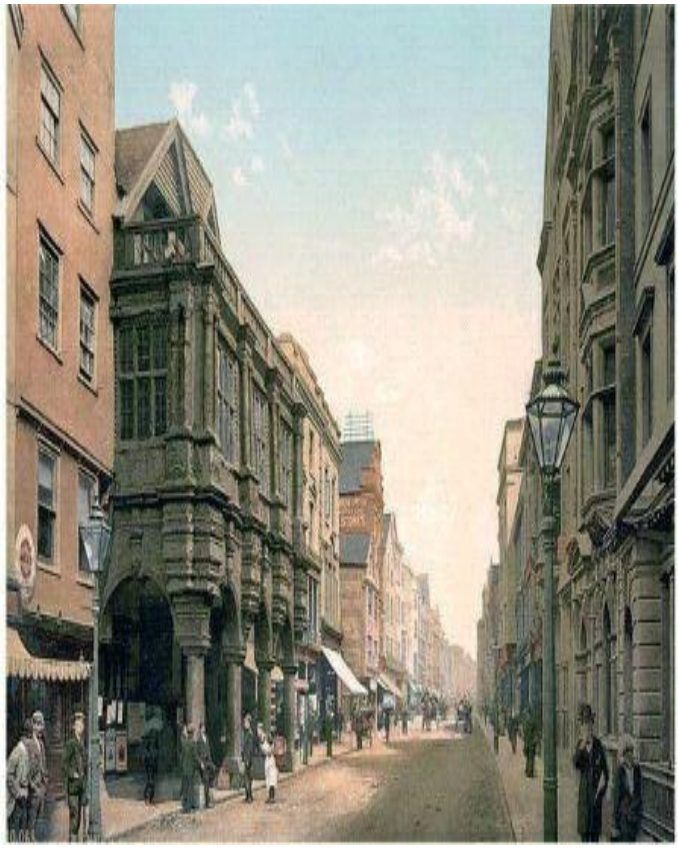

الشارع الرئيسي بمدينة "إكستر"

مكتبة "أكستر"

- "هذا الشارع يبدو وكأنه لم يمر به الزمن مطلقًا...وكأنه قادم من الماضي... صحيح "جاين"؟!".

التفتت إليه وابتسمت قائلةً :

-"لا أذكر شكل الحاضر لأعرف شكل الماضي،لكنه يبدو مألوفًا على أي حال".

أخيراً وصلا-ولدهشتهما- كان العثور على مذكرات"توماس هدسون"المحفوظة يسيراً، بحيث لم يصدقا أنهما بهذا القرب من الوصول لشيء ما، أي شيء على الإطلاق..

جلسا بإحدى الحجيرات وبدأ يوسف يمر سريعًا على الصفحات بعينيه، وعينا جاين معلقتان به، تركض لاهثةً خلفه على الصفحات...!!

وفجأة توقف، واتسعت حدقتا عينه بحماس كمن وجد كنوز"قارون"وقال :

-"هاهي ذا.... هنا ذكر اسم"دوروثي كاست" "، وشرع في قراءة المكتوب أمامه بصوت مسموع...

(دورثي كاست ... هذه الحسناء من الطبقة الأرستقراطية...اليوم انهيت رسم"البورتريه"الخاص بها...

طيلة الفترة الماضية التي كنت أتردد فيها على قصر عائلتها، كنت أشعر أنني عرفتها سابقًا... لا.. بل عرفتها في حياة أخرى حملت هي فيها اسم"أديلينا"...

وكـأنني...قـد عشـت حيـاتين...الأولى لا أذكـر منهـا إلا لمحـات خاطفـة.. تتراءى لي في أحلامي... فيها أعرف"دورثي كاست" باسم"أديلينا"...

الغريـب في الأمـر حقًـا.. هـو وجـود فتـاة أعرفهـا في القصر بـنفس الاسم... يُشاع انها ابنة غير شرعية للسيد"كاست"...)

(تتـذكرون عنـدما أخـبرتكم عـن"دورثي كاسـت"؟ حسـنًا...لقـد اختفـت... اختفـت تمامًـا منـذ بضـعة أسـابيع، الآن وبسـبب هـذا أُتهمـت "أديلينـا" المسـكينة بالسـحر والشـعوذة...وهـذا لـو تعلمـون أمـر مريـع حقًـا... فكـل مـن يشـتبه بممارسـته للسـحر يُقـدم إلى المحاكمـة مـن قبـل الجماهـير التـي تشـتبه بـه،وبالتواتر وحـده دون الحاجـة لـدليل مـادي...وهـذا راجـع إلى تعـاليم الكنيسـة كـما ورد في كتـاب مطرقة الساحرات*...

لقـد أخضـعوها لاختبـار الغـرق...أحـاطوا رسـغيها وقـدميها بالأغلال..وألقوا بها في الماء...

حسـنًا..لقد غرقـت...أو كـادت تغـرق...لـولا أن أحـد الـواقفين هـرع لمسـاعدتها، وأخرجهـا مـن المـاء...في الواقـع.. هـذا لم ينقـذها...بـل زاد الوضع سوءًا...لكليهما!!

فبالنسـبة لهـا...أثبـت هـذا عليهـا تهمـة السـحر والهرطقـة...فقـد قـال القـاضي أنهـا أثـرت عـلى ذاك الرجـل بالسـحر...وأمـا الرجـل فقـد اتهـم انه خضع لسلطة الشيطان ؛ وعليه صدر الحكم بإعدام كلًا

منهما حرقًا كما جرى العرف في إعدام السحرة...)

(ثمـــان أعـــوام مضـــت الآن عـــلى اختفـــاء"دورثي كاســـت"....واليـــوم.. ظهـــرت مجـــددًا... بـــنفس هيئتهـــا وملامحهـــا التـــي رســـمتها يومًـــا... وكأنما لم يمر على اختفائها سوى القليل من الزمن...).

أخذ"جو" يقلب مجددًا في الصفحات ثم قال :

-"هـــذا كـــل شيء .... لا ذكـــ ر لهـــا مجـــددًا في أي مـــن الصـــفحات التاليـــة ولو بشكل عابر حتى..."

***

*كتاب مطرقة الساحرات.. هو كتاب كتبه اثنان من الرهبان..

"هـــايرنش" و "جـــاكوب".. الجـــزء الأول مـــن الكتـــاب: يقتضيـــ أن المســـيحيين لـــديهم التـــزام (عقائـــدي - كنسيـــ) بمطـــاردة (الســـحرة) وقتلهم..

الجـزء الثـاني مـن الكتـاب: يعـالج كيفيـة كتابـة وعمـل السـحر مـن قبـل الساحرات..

الجـزء الثالـث مـن الكتـاب: ينـاقش مـا الـذي يمكـن للمسـيحي المـؤمن أن يفعله؛ليســـاعد العدالـــة بتقـــديم الســـاحرات إلى المحكمـــة الكنســـية(محكمة التفتـــيش) أو المحـــاكم المدنيـــة بتهمـــة الســـحر، وفيـــه تحـــريض قـــوي عـــلى تقـــديم كـــل مـــن يشـــتبه بممارســـته للســـحر إلى المحكمـــة مـــن قبـــل الجماهيرالتـــي تشـــتبه بـــه، وبـــالتواتر وحـــده دون الحاجة لدليل مادي.

***

٤- لمحات من حياة مضت ...

تنهد"جو "وقال :

-"يبدو أنه طريق مسدود...لم يذكر شيئًا عنها...عن نسبها.. كنا لنستطيع حينها البحث نزولًا في شجرة عائلتها...لربما وجدنا ما يربطك بها.."

-"على العكس... لقد قال بعض الأشياء التي....".

-"التي ماذا ؟!".

-"وجدت صدًى في نفسي.... أشياء بدت مألوفة لي جدًا..".

-"حسنًا"جاين"... الآن بدأت أشعر بالغباء قليلًا...هلا أوضحتِ ليّ مقصدك بعض الشيء ؟".

-"لا عليك "جو".. ربما لاحقًا يتضح الأمر أكثر...

هلا عدنا إلى"لندن" الآن؟ لا أرغب في أن تغيب عن عملك أكثر من ذلك".

هز"جو" كتفيه ومط شفتيه في عدم رضا ومن ثم قال :

-"لا بأس... حسنًا.. أعني إن كان هذا ما ترغبين به...".

عدنا إلى"لندن"مرة أخرى، أوصلني"جو" إلى شقته.. تركني عند الباب ورحل ذاهبًا إلى عمله... شعرت أنه كان محبطًا لأنه لم يجد

دليلًا مباشرًا يربطني بتلك اللوحة أمامي... أما أنا، فمع كل حرف يقرأه كنت أرى في خيالي مشهدًا خاطفًا وكأنها ذكرى، لكنها مشوشة...

ذلك الاسم المذكور في المذكرات-"أديلينا"- إنه مألوف جدًا...!!أنا مرهقة جدًا الآن ربما سأخلد للنوم قليلا...

(" "أديلينا"...تعالي إلى هنا..من كسر تلك الآنية أتعلمين كم ثمنها أيتها الحمقاء؟".

-"أنا آسفة أمي..."

-"وما الذي سأفعله بأسفك حين يقرعني السيد"كاست".. ها.. ما الذي سأفعله حينها؟ ".

-"أخبريه أن ابنته من كسرتها".

-"الآنسة"دورثي" ليست في القصر اليوم ... وحتى إن كانت.. أتريدينني أن أكذب.. تبا لكِ من فتاة عاقة".

بحنق قالت"أديلينا" :

-"لم أطلب منك الكذب أمي...أولست أنا الأخرى ابنته؟!".

كاد الشرر يقفز من عيني الأم وهي تنقض على ابنتها؛ تجذبها من ياقة ثوبها بشدة،وهي تكاد تصرخ بصوت هامس :

-"إياكِ أن تأتي على ذكر هذه السيرة مجددًا...أتفهمين...أترغبين في أن نتدلى من على أغصان الأشجار...ها...

يا للهول.. منذ متى وأنتِ بهذاالغباء..تبًا يا فتاة...".

انتظرت"أديلينا" إلى أن رحلت أمها بعد أن وعدتها أنها ستنظف المكان،وتعيد كل شيء كما كان،كما كان تمامًا...

لو أن أحدهم كان واقفًا لحظتها لرأى"أديلينا" تختفي فعليًا لبضع لحظات.. ثم تظهر مجددًا، ويظهر المكان كما كان.. مرتبًا...كما أن الآنية تعود مكانها بدون خدش واحد حتى ...).

(جلست تتأمل الماء المتدفق في القناة أمامها،وأخذت تحرك يدها في الهواء أمامها، الغريب أن مع حركة يدها كانت قطرات الماء تتحرك لترسم نفس الأشكال التي ترسمها هي...

فجأة شعرت أن أحدهم يقترب، فخفضت يدها ووضعتها على ركبتيها، في نفس اللحظة سقطت قطرات الماء لتندمج مع البقية،وكأنما كانت مربوطة جميعًا بخيط قد انقطع فانفرطت كحبات عقد اللؤلؤ!!

-" كيف حالك "آدي"؟".

-"بخير"توم"... كيف حالك أنت؟ وما أخبار لوحاتك؟"

-"إنها جيدة...أتحسن تدريجيًا... ربما قريبًا سأذهب لأتتلمذ على يد"جوناثان ريتشاردسون".... ألم تسمعين عنه؟".

-"بلى... هنيئًا لك يا صديقي...أتمنى لك التوفيق..".

-"ما الأمر"آدي" ؟... يبدو عليكِ الضيق".

-"لا شيء...أنا على مايرام".

نظر إليها قليلًا ثم قال:

-"لا...هناك ما يثير ضيقك...أنا أعرفك أكثر منك...أعرفك مذ ولدتِ"

أشاحت ببصرها بعيدًا في الفضاء ومن ثم غمغمت قائلةً:

- "لقد نهتني أمي عن الحديث في الأمر سابقًا... وهناك الكثير من المستجدات تجري معي...ولم أستوعبها بعد...".

-"تعنين الحديث المتناثر بشأن كونك ابنة غير شرعية للسيد"كاست"...أم... السحر؟"

التفتت "أديلينا" إليه بحدة وهي تهتف به قائلةً :

-"هل جننت"توماس"؟ أتسعى إلى حرقي حية؟! ماذا لو سمعك أحدهم..ماذا لو كان أحد الإكليروس*مارًا من هنا في تلك اللحظة؟ تعلم أنهم لا يحتاجون لأدلة لتقديم مشتبه به كونه ساحرًا للمحاكمة... يا للهول"توماس"...يا للهول...".

ضحك توماس قليلًا وهو يقول :

-"اهدأي "آدي"...لا أحد هنا سوانا.. لا أحد على الإطلاق..".

ثم مال على أذنها وهمس قائلًا :

-"لقد رأيت قطرات الماء ترقص في الهواء مع حركة يدك...أعلم أنك منهم...لكنني أبدًا لن أشي بكِ").

***

*الإكليروس هم رجال الدين المسيحي.

***

استيقظت من نومي أشعر بالدهشة، هذا الحلم العجيب، شعرت أنه واقعي للغاية، بدا وكأنه ليس مجرد حلم.. يقين ما تولد بداخلي أن ما رأيته كان ذكرى من حياتي السابقة قبل أن أفقد ذاكرتي!!

نفضت رأسي بقوة وكأنما أحاول نفض الأفكار عنها، فما أفكر فيه غير منطقي بأي حال من الأحوال...

لقد كنت في ذاك الحلم أحيا حياة "أديلينا"- تلك التي ذكرها "توماس هدسون" عابراً في مذكراته- كيف يمكن أن تكون ذكرى؟ حتى لو افترضنا عبثًا أنني كنت أحيا في الماضي وبطريقة عبثية عشوائية ما أمسيت ها هنا، أو أنه نوع من تناسخ الأرواح، "فالبورتريه" المعلق في مدخل هذه الشقة يقول إن حينها يفترض بي أن أكون"دورثي كاست"- حيث أنني أحمل ملامحها وأمتلك وشاحها- لماذا إذن أراني في شخصية "أديلينا" تلك؟!

رباه...إن رأسي يكاد ينفجر من الألم...

حتام سأظل في تلك الحيرة يا إلهي؟!!

توالت الأيام...وازدادت تلك الومضات في أحلامي، ترددتُ كثيراً في إخبار"يوسف"عنها، ما الذي يمكن أن أقوله؟!

كيف لي أن أشرح شيئًا لا أفهمه؟

صرت كثيراً أراني أحيا حياة "أديلينا" تلك، أصبحت أعرف عنها الكثير، هي حقًا ابنة غير شرعية للسيد"كاست" ذاك، ورثت عن عائلة أمها السحر وهو يجري في دمائها على ما يبدو، تمارسه أحيانًا عن غير وعي، وهذا في زمنها من أخطر ما يكون فإن علم أحدهم بهذا فإن ذلك يعني حكم الموت عليها !

مؤخرًا -في أحلامي- بدأت تتحكم في موهبتها تلك وتعبث بها أحيانًا...

رأيتني- في شخصيتها وملامحي-وكأنما أعود بالزمن للوراء، أحيانًا لساعات وأحيانًا لبضع أيام، أصلح أخطاء ارتكبتها دون أن يلمحني أحدهم، وأعود لذات اللحظة التي اختفيت فيها في حاضري، أحاول استنتاج أثر التغيير الذي أحدثته في الماضي وأتصرف على أساسه...

الوحيد الذي كان يعلم بشأن كوني أو كون "أديلينا" تلك ساحرة كان الرسام،"توماس هدسون"،يبدو أن مذكراته قد أغفل فيها الكثير، هذا لو افترضنا أن أحلامي واقعية، وهو ماأظنه إلى الآن ضرباً من الخيال...

(كعادتها في وقت فراغها...جلست "أديلينا" تتأمل تدفق الماء في القناة، حين فوجئت ب"توماس" آتيًا نحوها يركض من بعيد...

-""أديلينا"...أنتِ في خطر".

انتفضت في مكانها وهبت واقفة تسأله في ذعر :

-"ما الذي تعنيه ؟!"

-"سمعت بعض النسوة في السوق...يتهامسن بشأنك... يشتبهن في كونك ساحرة...تعلمين ما يعنيه هذا...".

-"ياللهول! يا للهول! ...ما الذي يفترض بي فعله الآن...يا لمصيبتي..".

- "حاولي أن تهدئي قليلًا حتى تستطيعي التفكير بوضوح...وأثق أنك ستجدين مهربًا ما".

-"لست أدري...لست واثقة كيف يمكنني الهروب هذه المرة".

صمت "توماس" لبعض الوقت وبدا على وجهه التركيز العميق... ثم التمعت عيناه وقال :

-"كما تهربين في كل مرة...عودي بالزمن للوراء واحرصي على تفادي أخطاءك التي جعلت شكوكهن تستثار".

- "لكنني لا أعلم تحديدًا ماهي تلك...".

بترت كلامها فجأة ورفعت بصرها إليه وهي تقول :

-""توماس"...أنت عبقري...سأعدل قليلًا فكرتك..".

-"كيف ؟".

-"سأصبح الابنة الشرعية للسيد"كاست"...سلطاته ستحميني منذ طفولتي...".

-"لست أفهم...ما الذي تعنينه؟ ماذا عن "دورثي"؟".

-"سأصبح أنا هي...وهي ستكون في أمان..لأنها ليست بساحرة...لن يضيرها أن تصبح هي "أديلينا" .

-" كيف ستفعلينها ؟!".

-" كما قلت أنت...سأعود بالزمن للوراء... كلتانا ولدت في نفس اليوم...سأبدل"دورثي"ب"أديلينا"... وأعود للحاضر مرة أخرى..أكون حينها"دورثي"...

-"ألن يكتشف أحد الأمر؟ لقد رسمتُ لها لوحة.. ألن يكشفك اختلاف الملامح عنها؟".

-"من تجاربي السابقة...ستتبدل ذاكرة الجميع لتتلاءم مع التغير الذي أحدثته").

ما الذي يعنيه هذا الحلم الأخير؟!ترى..هل أنا "أديلينا"؟ هل قمت بالتبديل؟!! ربما هذا يفسر تسمية اللوحة التي تحمل ملامحي اسم"دورثي كاست"...

ترى...أيجب أن أخبر "يوسف" بأمر تلك الومضات التي تنتابني ؟ أحان الوقت لهذا ؟

أشعر بالألم في رأسي يزداد، ضوء الشمس الذي اقتحم الغرفة من النافذة المفتوحة يشعرني بالضيق، عينيَ لا تكادا أن تحتملانه،كم أود لو أن الستائر تنغلق من تلقاء نفسها، فأنا الآن أكسل من أن أنهض من الفراش، ترى هل لو أشرت لها بيدي ستنغلق؟!

هههههه ..... لقد أثرت تلك الأحلام على رأسي...

لكن ... لمَ لا ؟! لأجرب...

نظـــرت إلى الســـتائر المفتوحـــة لوهلـــة، ثـــم أشرت إليهـــا بيـــدي في اتجـــاه غلقها...

لبرهـــة اعتقـــدت أن لا شيء ســـيحدث، لكـــن-لدهشـــتي- بـــدأت تتحـــرك ولم يكن ذلك بفعل الهواء!!...

لقد انغلقت الستائر مع حركة يدي...!!!

ظلـــت تلـــك اللمحـــات و مـــا صرت موقنـــة أنـــه ذكريـــات تتـــدفق عـــبر ممرات عقلي طيلة الأيام الماضية...

الليلـــة الســـابقة عـــلى ســـبيل المثـــال رأيتنـــي في غرفـــة دوروثي أرتبهـــا، وخطـــر ببـــالي تفقـــد خزانـــة ملابســـها، كـــل تلـــك الأثـــواب الفـــاخرة التـــي ترتـــديها للحفـــلات والنزهـــات شـــعرت أن مـــن حقـــي أنـــا الأخـــرى أن أمتلـــك ولـــو القليـــل منهـــا، مـــن حقـــي ألا تكـــون حيـــاتي محصـــورة في خدمـــة المنزل والجلوس على ضفة القناة، أنا أيضا ابنته!

ما ذنبي كوني جئت هذه الدنيا بغير الطريق الشرعي؟!

لِمَ يرفض الاعتراف بيّ ؟!

كنـــت أشـــعر بـــالحنق حقـــا، أنـــا لا أحســـدها لكننـــي أســـتحق أن تـــتم مســـاواتي بهـــا، الفـــارق الوحيـــد ربمـــا أن أمهـــا مـــن النـــبلاء وأنهـــا زوجـــة شرعيـــة للســـيد كاســـت - حتـــى أنـــه لا يســـمح ليّ بمناداتـــه أبي لا في العلـــن أو السرـــ- لـــيس خطئـــي أن أمـــي مـــن العامـــة، أن أحـــدا لا يعـــرف نســـبها أو من أين أتت قبل أن تستقر هنا...

حين وصلت بأفكاري إلى هذه النقطة كنت قد قررت مواجهة أمي والسيد كاست من بعدها، بما يجول في خاطري؛أغلقت باب غرفة خزانة الملابس، وذهبت أبحث عن أمي...

"أمي هل تملكين القليل من الوقت؟ أرغب بمحادثتك بأمر ما".

التفتت إلي ببطء تتأملني ومن ثم قالت بتوجس:

"ماذا ورائك أديلينا ؟".

ابتلعت ريقي بينما حاولت استجماع شجاعتي؛ لأدفع الكلمات المتحشرجة في حلقي خروجًا لشفتي قائلةً :

"ما الضير لو تحدثت مع السيد كاست؟ ربما استطعت إقناعه ب..."

قاطعتني والشرر يكاد يقفز من عينها هامسة بحدة :

"إقناعه بماذا ؟! ها.. ألم نتحدث مطولًا بهذا الشأن ؟"

ثم تنهدت محاولة تمالك أعصابها قبل أن تقترب مني، وتحيطني بذراعيها ناظرة مباشرة في عينيَ قائلةً بنبرة دافئة :

"يا صغيرتي أعلم أنك تشعرين بالظلم، لكن صدقًا لا تريدين لفت الأنظار إليكِ، تعلمين جيدا أن الموهبة التي تسري في دمائك قد تقضي على حياتك إن علم أحدهم بها...

ماذا لو أنك نجحت في إقناعه بالاعتراف بكِ؟ ماذا بعد؟ ستسلط أضواء المجتمع عليكِ....

صغيرتي...أنتِ لم تتقني بعد التحكم في قواكِ، ماذا لو فقدتِ السيطرة؟ ماذا لو حدث هذا وسط جمع من الناس؟

حينها لن يكون هناك حاجة لمحاكمة! وربما نفذ هؤلاء الحكم بأنفسهم!

لا زلتِ مندفعة خلف مشاعرك ورغباتك، يومًا ما ستنضجين، ستدركين أنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وإن بعض الأمنيات إن أتت جاءت بهلاك محقق"

تلألأت الدموع في مقلتي بينما قلت بصوت مختنق وأنا أزيحها بعيدا عني :

"أنتِ هي السبب، أنتِ من أورثني تلك اللعنة، لمَ كان عليّ أن أكون مثلك؟ لمَ أتيت بي إلى هذا العالم من الأساس إن كان عليّ أن أعيش متخفية متلفتة خلف ظهري طوال الوقت ؟!"

خفضت بصرها أرضًا، وبدا أن كلماتي كانت جارحةً فغمغمت قائلةً :

"لم يكن الأمر بيدي صغيرتي، لم يكن بيدي، كنت صغيرة ربما أصغر منك حين بدأت الخدمة في القصر كان السيد كاست الابن المدلل، وما يطلبه ينالـه - حتى لو كان ذاك إحدى الخادمات- وأنا ... أنا لم يكن لديّ خيار، كان يعلم بشأن ما أنا عليه، وكان الأمر خيارًا بين أن أرضخ أو أن أحرق حية".

شعرت حينها بغصة في حلقي؛ فاندفعت خارجةً إلى حيث منزلنا الواقع على أطراف الضيعة، كنت قد بدأت في البكاء ولم أرغب لأحد أن يرى عبراتي...

من بين دموعي رأيت السيد كاست واقفا في منتصف حديقة القصر، يُشرف على إعدادت حفل الليلة...

تسمرت مكاني للحظات، لكم تمنيت أن أرتمي بين أحضانه، أن يُشعرني بأبوته...

في تلك اللحظة رأيت دوروثي مقبلةً عليه، والتي ما إن رآها حتى اتسعت ابتسامته وفتح ذراعيه عن آخرهما مشيراً إليها بالدخول لملاذ حضنه الآمن...

شعرت بقلبي يُعتصر ألما، وددت لو صرخت عاليا :

"لمْ؟! أولست ابنتك أيضا؟! ألا يستطيع قلبك الشعور بما أشعر به؟!"

كنت أكور قبضة يدي وأضغطها بشدة بينما أراقبهما، وعلى حين غرة فوجئت به يبعدها عنه قليلا ممسكًا صدره مُعتصرًا إياه بألم، استطعت رؤية وجهه يشحب تدريجيًا ومن ثم يسقط أرضا يجاهد لالتقاط أنفاسه !

تملكنيَ الخوف، وسيطر على عقلي هاجس أنني من يفعل به ذلك عن غير وعي مني، وتأكد هذا عندما بسطت قبضة يدي المضمومة لأن حينها بدأ يعود كل شيء كما كان، عادت الدماء تتدفق لوجهه، وراح يتنفس بيسر أكثر...

عدت أواصل الركض مبتعدة نحو المنزل، كنت أرتجف خوفًا وغضبًا في آن واحد!

تلك كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالخوف من نفسي، ذاك كان اليوم الذي أدركت فيه أنني قادرة على أن أؤذي أحدهم، قادرة على القتل!

هذا الحلم أثار خوفي أكثر، هل أنا حقًا قادرةً على الأذية لهذا الحد؟!

هل يأتي يوم ويتأذى أحدهم بسببي؟ يوسف على سبيل المثال؟!

يا للهول.. كم هو مزعج هذا الخاطر..

***

٥-سحر "أديلينا"

منذ حادثة الستائر وجاين تشعربالارتباك...

"هل كان ذلك من فعلي أنا ؟!!".

تساؤل دار في عقلها دونما توقف...وقررت المحاولة مع بضعة أشياء أخرى...

وجدت نفسها قادرة على غلق الأبواب، نقل الوسائد، حتى أنها صنعت لنفسها قدحًا من القهوة وجلبته عن بعد، كان يطير في الهواء...يتحرك وفق إرادتها...ويتبع إشارات يدها !

بدا هذا مألوفًا للغاية...الآن هي واثقة من كونها "أديلينا"، تشعر بالذكريات تنساب تدريجيًا عبر ممرات عقلها...

لا تزال هناك بعض قطع مفقودة من الأحجية، لكنها شعرت أن الصورة ستكتمل قريبًا...!

فجأة شعرت بالذعر

"ماذا لو اكتشف "يوسف" كوني ساحرة؟! هل سيشي بي ويقدمني للمحاكمة؟؟هل سيتركهم يحرقونني حية؟؟ لماذا ساعدني منذ البداية إذا كان سيسلمني لاحقًا للموت؟"

كانت ترغب في إخباره بما اكتشفته عن نفسها، لكن تخشى ردة فعله، ظنت أنه ربما يجب أن تستكشف أولًا كيف يمكن له أن يتصرف قبل أن تبوح له بأي شيء على الإطلاق...

في طريقه لمقابلتها أخذ يوسف يحدث نفسه قائلًا :

"بدت"جاين" متوترة على غير العادة الفترة السابقة، خاصة بعد أن عدنا من"إكستر - ديفون"...

لم أرَ أن المذكرات حوت شيئًا مفيدًا فيما يتعلق ب"جاين"، لكن... لكن أشعر أنها تخفي شيئًا ما، تخشى شيئًا ما، على كلٍ، سألتقيها الآن وسنتناول الغداء سويًا...

أنا ألتمس لها العذر، فرغم كل شيء، أنا غريب عنها، حتى وإن كنت حاولت إثبات حسن نواياي، فلا سبيل فعليًا لها لتتأكد...".

كان أمرها يشغله كثيراً، يقلق بشأنها ويتمنى لو أنه يملك المزيد ليساعدها...

كانت واقفة تنتظره في مدخل البناية احتماءَ من الأمطار التي بدأت تتساقط لتوها..فأسرع الخطى نحوها قائلًا :

-"هل تأخرت عليكِ كثيراً ؟".

-"مطلقًا... أنا من نزلت مبكراً بعض الشيء ...".

فابتسم وقال :

-"إذن... هلا أسرعنا حتى لا نبتل ؟".

بادلته الابتسام قائلةً :

- "بعض البلل لن يضير أحدًا...دعنا نتمشى بتؤدة تحت المطر...نرفع رؤوسنا إلى السماء مغمضي الأعين...نأخذ نفسًا عميقًا نستنشق فيه عبير الأرض الرطبة...ولنغفل للحظات عن كل ما قد يثقل الكاهل... نسرق وهلة من الزمن نتخيل فيها أننا أحرار...نحلق لثوان قبل أن نرتطم مجددًا بالواقع على الأرض..."

كانت فعلًا مغمضة العينين، رأسها مرفوع للسماء، تأخذ شهيقًا عميقًا...

-"أتحبين المطر؟!"

-"لا أحبه...بل أعشقه.."

اتسعت ابتسامة يوسف وقال :

-"ها هو جزء من ذاكرتك قد عاد إذن"

ارتعاشه عابرة بدت على ابتسامتها قبل أن تقول بضحكة بدت عصبية بعض الشيء:

-"وها قد عدنا إلى الواقع على الأرض..".

شعر أنه قد أفسدالأمر، لذا تلعثم بعض الشيء، وهو يحاول الاعتذارقائلًا :

-" أنا... آسف..لم أقصد.. كنت فقط..."

قاطعته قائلةً :

-"لا بأس... ليس الأمر بهذا السوء.. هيا بنا.. فأنا أتضور جوعًا...".

لم تعرف كيف تبدأ في طرح أسئلتها.. لذا-وفي خلال انتظارهما للنادل أن يلبي طلبهما- تركت الكلمات تتراص خروجًا من فمها دون أدنى ترتيب أو صياغة...

-" "جو"... كنت أريد أن أسألك عن شيء ما"

ابتسم وقال :

-"هاتِ ما عندك.... كلي آذان مصغية "

-"امممم.. كنت... أتساءل.. عن.. حسنًا.. عن محاكمات الساحرات...تلك التي تحدث عنها"توماس هدسون" في مذكراته..."

ضحك لبعض الوقت قبل أن يقول من وسط ضحكاته :

-"هل أنتِ جادة؟ محاكمات الساحرات؟!"

تطلعت إليه ببعض الدهشة وقالت:

-"جادة تمامًا... لست أدرك ما المضحك في سؤالي !!"

تلون وجهه ببعض الحمرة وتنحنح قائلًا :

-"اعذريني... لكنني.. أستمر بنسيان أمر فقدانك للذاكرة..ولم أعتقد أنه قد يخطر ببالك مثل هذا السؤال...

نحن في القرن الحادي والعشرين...لقد اندثرت تلك المحاكمات ...منذ ثلاثة قرون على الأقل.."

شعرت ببعض الراحة بعد إجابته، فبالنسبة إليها عني هذا أنها بأمان من حكم الإعدام حرقًا...

استرخت في مقعدها نوعًا ما... ومن ثم سألته :

-"وماذا عنك؟ ما الذي تظنه بشأن السحر؟"

-"حسـنًا... أي نـوع مـن السـحر تعنـين؟ التعاويـذ والـتمائم ومـا شابه..أم ماذا ؟"

- "أعنـي مـثلًا القـدرة عـلى تحريـك الأشـياء عـن بعـد...السـفر في الزمن...هذا النوع من الأمور"

-"في الواقـع أثـق أن هنـاك فئـة مـن النـاس لـديهم القـدرة عـلى تحريـك الأشـياء عـن بعـد، عـن طريـق تركيـز قـدراتهم الذهنيـة و العقليـة...لا أظـن هـذا سـحرًا... أمـا عـن السـفر في الـزمن... فـلا أدري صراحـة... يبـدو هـذا كضرب مـن المسـتحيل.. لكـن...مـن يـدري.. فيومًـا مـا كـان السفر إلى الفضاء ضربًا من الخيال".

ابتسـمت ولم تعقـب، وإنمـا تمتمـت بصـوت غـير مسـموع لسـواها قائلـةً :

"ربما هناك أمل في أن يتقبلني"جو"بما أنا عليه حقًا"

- "لكن لمَ تلك الأسئلة عن السحر ؟!"

اتسعت ابتسامتها وقالت :

-"إنه الفضول وحسب... مجرد فضول".

"أحقًـا كـان مجـرد فضـول؟ لقـد بدت"جاين"مهتمـة كثـيرًا بموضـوع السحر هذا...!

شعرت بالتردد في نبرة صوتها عند السؤال عن المحاكمات، بدت وكأنها ترغب في البوح بشيء ما،ولكنها تراجعت، أنا الآن من يقتله الفضول...

من قال إن الرجال لا يشعرون بالفضول ؟!".

لم يستطع أن يقاوم فضوله أكثر من هذا، على الرغم من أنهما افترقا منذ بضع ساعات فحسب، إلا أنه قررالاتصال بها لطلب لقاء قريب، كان يحاول البحث عن حجة مقنعة لطلبه، ربما يتحدث عن ترتيب موعد في مكتب توظيف أو ما شابه...

وما كاد يخرج هاتفه من جيبه حتى وجده يرن !

وكانت هي !!

-"مرحبا "جاين" ...يالها من مصادفة... كنت على وشك الاتصال بكِ"

-"حقًا؟ ...لمَ ؟ ما الأمر ؟"

بحنق تمتم بصوت غير مسموع قائلًا لنفسه :

"تبًا لك يا لساني... لمَ لا تفكر قبل أن تنطق...لم أحكم حجتي بعد"

من ثم حاول استعادة رباطة جأشه ورد عليها قائلًا :

-"آآ...امممم...أخبريني أنتِ أولًا...هل هناك ما تحتاجينه؟ هل هناك مشكلة؟"

-"لا... لا مشكلة على الأطلاق... كنت... كنت فقط.."

-" كنتِ ماذا؟"

-"أرغب في لقائك..هناك ما أريد البوح به..."

-"العشاء إذن؟"

-"حسنا...سأنتظرك"

قبل أن تتصل به كانت قد اتخذت قرارها، ستخبر"يوسف" بكل ما توصلت إليه واستنتجته...!

إنه الوحيد الذي تعرفه حقًا في هذا العالم، في هذا الزمن..

هو من تولى رعايتها، أمّن لها مسكنًا، في الواقع تنازل لها عن مسكنه مؤقتًا...تحمل حيرتها، خوفها، وجهلها التام بكل ما حولها...

قررت أنها ستخبره بشكل عملي...

قطع أفكارها وتركيزها في كيفية إعلامه بالأمر صوت جرس الباب...

-"تفضل بالدخول"جو".. ".

-"ألن نخرج لتناول العشاء ؟"

-"لقد أعددت أنا الطعام...أتمنى أن يعجبك طهوي"

دعته للجلوس حتى تُتم إعداد الطاولة، لكنه أصر على المساعدة، كان في طريقه للمطبخ حين وجد الصحون تحلق في الهواء، تتجه وحدها نحو طاولة الطعام...

من فوره التصق ظهره بالحائط وصاح في دهشة :

-"جاااين... هل.. هل رأيت هذا ؟!!"

خرجت من المطبخ ويدها لا زالت في الهواء توجه الصحون لتهبط بسلام على الطاولة، ومن ثم قالت :

-"في الواقع "جو"... لقد أردت أن ترى هذا...هذا ما أردت البوح به لك"

قال- وهو لا زال مبهوتًا-:

-"لست...لست أفهم ما ترمين إليه"جاين" "

فقالت مصححة:

-""أديلينا"..."

-"عذرًا ؟!"

-"فيما مضى أخبرتني أن "جاين" اسم مؤقت لحين أستعيد ذاكرتي..."

-"أتعنين...؟"....

-"أجل... لقد استعدت جزءًا من ذاكرتي... أنا هي.."أديلينا"..."

كل ما دار في ذهنه في هذه اللحظة هو أن "جاين" قد فقدت صوابها تمامًا!!، تلك المسكينة تظن نفسها ساحرة أعدمت في القرن السابع عشر! إنها على مايبدو مقتنعة بهذا تمامًا، حتى أنها أقنعت عقلها أن يستخدم قدراته ويصل لأقصى تركيز حتى استطاع تحريك الصحون!!

-""جو"... أقسم لك... في الفترة الأخيرة... بعد عودتنا من "ديفون".. راودتني الكثير من الرؤى... ومضات عن حياتي السابقة، أنا "أديلينا"..."

أخـذت تحـكي وتحـكي عـن تلـك الـرؤى -المزعومـة في ظنـه-... أنشـأت حيـاة كاملـة، صـنعت رابطًـا بينهـا وبـين ذاك الرسـام، وبـين صـاحبة "البورتريه" "دورثي كاست"...

-".....بمـا أن البورتريـه يحمـل ملامحـي فهـذا يعنـي أننـي قمـت حقًـا بالتبديل.. ونجحت في ذلك...".

كلـما تحـدثت أكـثر عـن الأمـر كلـما ازداد يقـين يوسـف أنهـا تحـاول تبرير كل الأمور؛ لتتلاءم مع الحياة التي اختلقتها في رأسها...!!

-"فلنفرض جدلًا "جاين"... ".

قاطعته مصححةً بعند وإصرار:

-" "أديلينا" "

-"لنفـرض جـدلًا.."أديلينا"... أنـكِ محقـة...وأنـك مـن تـدعين أنـك هـي، وفعلـت كـل تلـك الأشـياء.. مـا الـذي جـاء بـك إلى هـذا الـزمن؟ إلى المستقبل حسب ادعائك؟"

بـدا وكـأن سـؤاله قـد صـدمها، لم تضـع في حسـبانها هـذه النقطـة، وكـأن توقهـا الشـديد ألا تصـبح مجهولـة الهويـة صـنع لهـا عالمًـا متكـاملًا بنتـه مـن خيـوط البحـث المهترئـة التـي سـارا خلفهـا، ونسـجت حولهـا عديـدًا مـن التفاصـيل لتـدعم بنيانهـا، إلا أنهـا غفلـت عـن كيفيـة وصـولها لـزمن مغاير...

-"آ... لسـت أدري...لازالـت هـذه الجزئيـة مـن ذاكـرتي مفقـودة، لكنني على ثقة بأنني سأتذكر...".

لم يحاول يوسف أن يطرح لها ما دار في ذهنه من شكوك وافتراضات حول ذاكرتها الخيالية تلك من وجهة نظره خشي أن يحدث لها انتكاسة من نوع ما، فبعد كل شيء هو لايعرف بعد ما تسبب في فقدانها الذاكرة في المقام الاول...

لا يستطيع أن ينكر أنه حين رآها لأول مرة تحمس كثيراً نظراً للشبه الشديد بينها وبين لوحته من المزاد...

كان يحدث نفسه في صمت قائلًا :

"لكن.. فلنكن واقعيين -حتى وإن اتسمتُ أنا ببعض الحماقة في البدء - لا يمكن أبدًا افتراض أن تلك المرسومة في "البورتريه" هي تلك التي تقطن شقتي حاليًا..

صدقًا، هذا ضرب من الجنون، ولا أريد أن تصبح شهرتي هي (مجنون صاحبة "البورتريه") ليس هذا ما كنت أطمح إليه في مسيرة حياتي...".

طلب منها أن تخلد للراحة وكتب لها وصفة طبية ببعض أنواع المهدئات...

حينها نظرت له بعين التمعت فيها الدموع وقالت :

-" "يوسف".. صدقني.... أنا لست بمعتوهة أو مصابة بمس من الجنون"

كانت تتحدث بجدية تامة حتى أنها نادت اسمه بشكل رسمي وتلك تقريبا كانت مرتها الأولى...

ربت على كتفها وقال :

-"مـــن ذكـــر العتـــه او الجنـــون؟! لقـــد قلـــت فقـــط أنـــك بحاجـــة للراحة...وهذا من وجهة نظر طبية بحتة"

مطـــت شـــفتيها، وأومـــأت برأســـها إيمـــاءة بغـــير ذي معنـــى، ظلـــت بعـــدها صـــامتة، فحـــاول كسرـــ ذاك الصـــمت بقولـــه إن الطعـــام لذيـــذ حقًـــا، ولابـــد أنها كانت طاهية محترفة في وقت ما..

حاولـــت الابتســـام لكـــن ابتســـامتها جـــاءت باهتـــة فـــاترة ولم تـــزد عـــن قول: أشكرك...

كانـــت تلـــك إشـــارته للرحيـــل، فقـــد بـــدا أنـــه لا يوجـــد المزيـــد لقولـــه في الوقت الراهن..

***

مـــرت بضـــعة أســـابيع الآن مـــذ أخـــبرت "يوســـف" أنهـــا "أديلينـــا"، بـــدا واضحًا من ردة فعله أنه لا يصدقها، وإن حاول مجاراتها...

شيء مـــا شـــعرت أنـــه انكسرـــ داخلهـــا بعـــدم تصـــديقه -رغـــم تفهمهـــا لـــذلك نوعًا- كانت تظن أنه سيستوعب الأمر بطريقة ما..

شـــعرت أنهـــا ربمـــا تسرـــعت في إخبـــاره، أنهـــا ربمـــا كـــان عليهـــا أن تحـــاول الســـفر في الـــزمن أولًا، واكتشـــاف بعـــض الأمـــور المســـتقبلية، التـــي لم يخبرها إياها ثم تخبره بها، عله في هذه الحال يصدقها...

طيلة الفترة الماضية حاولت، حاولت كثيراً فعل هذا...

لكنهـا فشـلت فشـلًا ذريعًـا، ليسـت تـذكر كيـف كانـت تفعلهـا، تلـك الـرؤى أو اللمحـات الماضـية أشـبه بصـور معروضـة، لم تعطهـا ولـو تلميحًـا عـن آليـة الانتقـال في الـزمن، وإلى الآن ليسـت تـذكر كيـف وصلت إلى زمن يبعد عن زمنها بضع مئات من السنين...

***

لم يرها منذ عدة أيام الآن، ربما أسبوع أو أقل قليلًا..

كـان يغطـي مناوبتـه في المشـفى، ومناوبـة زميـل لـه تـزوج وسـافر لقضـاء شـهر العسـل يقضي وقتًـا ممتعًـا ، ويوسـف هنـا لا يكـاد يحظـى بساعتي نوم متصلتين...كان يشعر أنه...يفتقدها...

لا يعلم أهو التعود على لقياها يوميًا، أم أنه حقا يشتاق إليها؟!

-"يا للهول "جو"... تبدو كمدمن لم يتناول جرعته..."

-"هههـه ..... كنـت لتبـدو كـذلك لـو أنـك لم تـنم قرابـة أسـبوع "ألڤين"..."

-"أهي قلة النوم فحسب أم غياب مجهولتك ؟"

-" "ألڤـين"... كـف عـن هـذا... لا شيء يجـري بينـي وبينهـا...نحـن.. مجـرد صـديقين الآن... وأحـاول مسـاعدتها فحسـب عـلى تـذكر هويتها"

-"عيناك تخبران عكس لسانك "جو"...

بالمناسبة...لقد تحدثت مع مدير شئون العاملين.."

-"بشأن ماذا ؟!"

-"بشأنها...لقد توسطت لها لتعمل في استقبال العيادات...لن تبقى مسئولًا عنها ماديًا طوال الوقت...إلا إذا..."

قطع جملته وغمز يوسف بعينه فحدجه ذلك الأخير بنظرة نارية - لم يدرِ حقًا لمَ استفزه مقصد"ألفين" رغم علمه بأن هذه طبيعته- فتراجع "ألفين"إلى الخلف رافعًا كفيه أمامه، وكأنما يحتمي بهما منه وهو يقول ضاحكًا :

حسنا.. حسنا .. لا بأس لن آتي على ذكر هذا الموضوع ثانية ... اليوم..."

وانطلق يركض خارج الغرفة وهو لا يزال يضحك...

***

استلمت أديلينا -كما كانت تصر على أن تتم مناداتها-عملها بمشفى"سانت ماري" منذ قرابة الشهر الآن، واليوم ستستلم أول راتب لها..

ورغم أنه يفترض بها أن تكون سعيدة ومتحمسة، إلا أنها كانت تشعر بعكس ذلك...

لم تكتشف بعد سبب وجودها في هذا الزمن أو كيفيته، لم تتوصل لتقنية الانتقال عبر الزمن ... ولم تفلح في إقناع "يوسف" بحقيقة من تكون حسب يقينها، تعلم أنه يتظاهر بتفهمها، لكنها تعلم أيضا أنه لا يصدق، ليس بعد...

شعرت أنه من الجيد أن تكون مستقلة ماديًا، فقد أثقلت عليه كثيراً، وإن احتمل"ألڤين" بقاءه معه لفترة، فذلك لن يطول إذ أنه على وشك الزواج ولن يرحب بوجود"يوسف" بالتأكيد...

لذا فهي من يجب عليها الانتقال...!

الميزة الأخرى لهذا العمل من وجهة نظرها هو أنه يتسنى لها رؤيته كل يوم...

تشعر بقلبها يتراقص طربًا لمجرد سماع اسمه يتردد حولها، شعور الفراشات ذاك في معدتها حين تراه قادمًا من بعيد، هل... هل وقعت في حبه ؟!!

اليوم قررت أن تطلب منه مساعدتها في البحث عن مكان مناسب للانتقال إليه...

-"ألا ترين أ ن الوقت لا يزال مبكرًا على الانتقال؟ لتوك حصلتِ على راتبك الأول..."

-"لا.. إنه الوقت المناسب... لقد أثقلت عليك بما يكفي... يجب أن أنتقل ليتسنى لك العودة لشقتك ... يكفي ما تكبدت من عناء لأجلي"

شعرت أنه يحاول كتمان غضبٍ ما اندلع داخله وهو يضغط على الكلمات قائلًا :

-"أثقلتِ عليّ؟!! ما الذي دفعك لقول هذا ؟! هل حدث وأن اشتكيت إليكِ؟ هل سمعتني أتذمر؟!"

- "لا يتوجب عليك أن تفعل أيًا من ذلك لا تحتاج الشمس لأن تشير إلى نفسها لأعرف أنها موجودة..."

شعرت أن أوداجه تنتفخ، وجهه يكتسي بالحمرة، يحاول أن يأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول :

-"دعينا نؤجل الحديث في هذا الأمر رجاء...".

-"لا.. بل دعنا ننتهي منه الآن"

لأول مرة منذ التقيا تراه بمثل تلك العصبية، لأول مرة يصيح في وجهها قائلًا :

-"هل قصرتُ معكِ؟... لا تزالين بحاجة للرعاية لا زلتِ لا تذكرين شيئًا فعليًا حقيقيًا عن نفسك... لا تملكين أوراق هوية ولا تعرفين هويتك أصلًا لتستخرجي لها أوراقًا رسمية... أم تودين أن أبحث لك عن استئجار من الباطن ومضايقات تنتج عنه ها.."

شعرت بالوجوم للحظات، ومن ثم صاحت فيه هي الأخرى قائلةً :

-"لست طفلة "يوسف"... لست وصيًا عليّ..."

نظر إليها لوهلة ومن ثم اندفع خارجًا نحو بوابة المشفى...!!

كان يفترض به في هذا اليوم أن يوصلها للمنزل ومن ثم يعود، لكن بدا أنها أثارت غضبه حقًا، فأراد أن يبتعد وينفرد بنفسه حتى يهدأ...

كان يشعر بأنها مسؤولة منه وما طلبته منه أشعره بالنقص بشكل ما، بالتقصير...

كان غاضبًا على نفسه قبل أن يكون غاضبًا منها، شعوره بالعجز عن مساعدتها، عن استعادة ذاكرتها...

كان يخشى عليها.. ممَ ؟ لا يعلم تحديدًا.. ربما من نفسها...

لم تُرِد أن يذهب وهو لا زال غاضبًا منها، رغم أنها لم تعرف ما الذي يمكن أن تقوله لاسترضائه...

انطلقت تركض خلفه محاولة اللحاق به، وما إن خرجت من البوابة جالت ببصرها في الأنحاء حتى رأته يعبر الطريق للجهة المقابلة...

إشارة مرور المشاة حمراء... تشعر بقلبها ينقبض، يكاد ينخلع من مكانه، تشعر وكأن أمرًا رهيبًا سيقع...!!

في ذات اللحظة، سمعت صوت صرير عجلات عالٍ، اصطدام عنيف...

لتجد بعدها جسد "يوسف" يطير في الهواء وبينما يهبط تصدمه سيارة أخرى؛ ليعود ليحلق لبضع ثوانٍ أخرى قبل أن يرتطم بقسوة بالرصيف..

أرادت أن تصرخ باسمه، لكن صوته اختنق بحلقها...

ركضت نحوه بساقين رخوتين، لتجده ملقى على الأرض، بلا حول ولا قوّة، يسبح في بركة من دمائه، شبه غائب عن الوعي، يحملق في السماء بعينين غائمتين...

احتضنت رأسه ويدها تتخلل خصلات شعره الغارقة في الدماء اللزجة.. وبصوت أقرب للبكاء أخذت تهمهم قائلةً:

-" "يوسف" أرجوك... ابقَ...أنا آسفة...لم اقصد إغضابك...أرجوك "يوسف" "

بدا أنه لا يدرك وجودها، وأخذ يتمتم ببعض كلمات لم تفهمها...

والتقت عيناهما للحظة قبل أن يرتخي جسده ...

وتختفي من عينيه لمعة الحياة...!!

-"كيف يمكن لي أن أتنفس...كيف ليّ أن أحيا... "يوسف" أنا أشعر بالاختناق دونك.... أرجوك عد...أفق رجاء... هيا لا تتركني الآن"

شعرت بأن أحدهم يسحبها بعيدًا عن جسده المسجى أرضًا...

وآخر يربت على كتفها...

-"لقد رحل... أنا آسف... لكنه رحل"

أرادت أن تصرخ ألف ألف صرخة، لكن الصوت اختنق بحلقها، فقط دموعها انهمرت كالشلالات...

الأرض تميد من أسفلها، عاجزة عن الوقوف بثبات، رافضةً التصديق أن هذا المسجى أمامها قد رحل بلا عودة ...

وظلت تردد مغمغمةً بلا انقطاع بصوت مبحوح :

"يجب أن أعود، لابد أن أعود في الزمن لإنقاذه، لا بد وأن أعود لإنشاء خط زمني مغاير، رباه ذكرني كيف أفعلها لا أستطيع أن أفقده، لا.. لا أستطيع..."

***

٦- فقط لو أعود

بكيته كثيراً حتى جفت مدامعي وبقي قلبي يذرف بدل الدمع الدماء...

فقط لو أنني أجلت الحديث كما رغب، أو لو أنني لحقت به قبل عبوره الطريق ...، فقط لحظات

أبعده فيها عن مسار السيارة التي أودت بحياته..

أاااه...فقط لو أعود...

لم أحتمل البقاء في منزله، كل شيء هنا يذكرني به، أكاد أسمع صوته يتردد في أذني...

ارتديت معطفًا وخرجت أسير على غير هدى تحت المطر...

فجأة وجدتني في شارع جانبي ما، شعرت برجفة خوف تسري في أوصالي مع انتباهي لتربص أحد ما بي... كانا اثنين!!

حاولت تضليلهما، لكن لم أنجح في ذلك، في النهاية وجدتني محاصرة في أحد الأزقة من قبل هذين الاثنين، بدا أنهما محترفي إجرام...!

أغمضت عينيَ في قوة وتمنيت في عقلي أن يتجمد الزمن بهما لأستطيع الإفلات -لدهشتي- توقف صوت حركتهما بغتة، كما توقف صوت المطر أيضًا، فتحت عينيَ لأجد...

حسـنًا لا أدري كيـف أصـف ذلـك، كانـا كتمثـالين، أو كصـورة تـم تثبيتهـا أثنـاء الحركـة، حتـى إن قطـرات المطـر كانـت معلقـةً في الهـواء وكأنمـا المشهد كله تم تثبيته وصرت أنا المتحرك الوحيد فيه...

لم أحـاول البحـث عـن تفسـير للوقـت الحـالي، فالفرصـة قـد سـنحت للإفلات ولا أدري كم ستدوم وعليّ استغلالها...

انطلقـت أعـدو عائـدة للشـقة ومـا إن ابتعـدت بشـكل آمـن كفايـة، حتـى عـاد كـل شيء للحركـة مجـددًا، كنـت أسـمع مـن بعيـد صـوت سـبابهما السـاخط وتسـاؤلهما كيـف اختفيـت مـن أمـامهما وكـأنني تبخرت...!

كل ما دار في رأسي وقتها...

"تجميد الوقت هو من قدراتي !!"

عـدت إلى شـقة "يوسـف" ألهـث، بالكـاد أسـتطيع التقـاط أنفـاسي، لا بـد أننـي ركضـت مسـافة طويلـة للغايـة، كنـت أركـض وكأنمـا شـياطين الجحيم تطاردني...

لكننـي اسـتفدت، اكتشـفت قـدرة أخـرى غـير التحريـك عـن بعـد، إنهـا تجميد الوقت...

يبـدو أن عـليّ أن أرغـب بشـدة في أمـر مـا لأسـتطيع الـتحكم فيـه، ربمـا هذا هو ما عليّ فعله لأعود في الزمن، لأستعيد "يوسف"...!!

عليّ أن أحاول أكثر فأكثر حتى أتمكن منه وأتقنه...

لقد كان اليوم طويلًا، مرهقًا.. لقد شهدت موت"يوسف" صباح اليوم، وهذا وحده كفيل بالقضاء على أعصابي...سأحاول الخلود للنوم وغدًا يوم آخر...

***

ستة أشهر مضت منذ رحيل يوسف...

ستة أشهر لم أتوانَ فيهم عن محاولة إتقان التحكم في الزمن،ما يجعلني قادرةً على تجميده حري به جعلي قادرةً على التنقل خلاله ذهابًا وإيابًا في أي اتجاه أردت...

اليوم كان مختلفًا عن بقية الأيام ، فقد تذكرت، أجل تذكرت كيف وصلت إلى هنا...!!

تذكرت عودتي إلى ما بعد مولدي ببضع ساعات، حملت نفسي الرضيعة وأبدلت مهدها بمهد"دورثي"-أختي غير الشقيقة - كنت لتوي قد أتممت ما عدت لأفعله، بالكاد كنت أضع "دورثي" في المهد الخاص بي في ركن غرفتي بعد أن أبدلت ملابس الطفلتين مع بعضهما، لأجد"توماس هدسون" - طفلًا لم يتجاوز الخمس سنوات - واقفا أمامي يحملق فيّ بدهشة فاغرًا فمه... اضطربت، لم يكن من المفترض أن يراني أحد على الإطلاق، حرت في أمري!! ....ماذا افعل؟ ...ولم يتفتق ذهني لحيلة غير تلك الحيلة!!

ربت عليه وأخبرته أن هذا مجرد حلم وأنه يسير نائمًا، وعليه العودة لمنزله واستكمال نومه فالوقت قد تأخر...

لكنه قال :

"لم أكن نائمًا، جئت أرى الطفلة الجديدة".

فأجبته قائلةً :

"تستطيع القدوم لرؤيتها غدًا، عليك الذهاب الآن وإلا عاقبتك أمك".

لم يبدُ عليه الاقتناع لكنه غادر الغرفة تاركًا الباب مواربًا خلفه...

كان عليّ أن أقوم بتجميد الوقت أولًا لأستطيع من ثم السفر إلى حاضري...

لكنني شعرت بأحدهم يتسلل خلسة، إنها تبدو كخطوات شخص بالغ !! عليّ الرحيل حالًا، إن كنت لا أريد أن أعدم حرقًا..

كنت متوترة للغاية، لذا فقد حاولت تجميد الوقت والقفز في الزمن في آن واحد...

وكان هذا هو خطئي ...

أفقت لأجدني واقفة على الرصيف في"بادينجتون" ولكن في العام ٢٠١٦، كنت مرتعبة، لا أذكر من أكون، ربما هذا هو أثر التبديل، الذاكرة أرادت أن تحمل ذكريات "دورثي"، لكنها لم تعشها فعليًا، وإنما عاشت ذكريات مغايرة بقت في العقل الباطن ولم تُمحَ كما كان يفترض بها...

وصلت لهذا الزمن في اللحظة المناسبة لألتقي "يوسف"...!

عـليّ أن أتمـرن عـلى القفـز في الـزمن جيـدًا؛ لأعـود للحظـة المناسـبة لإنقاذه،لا بد لي من أن أعيده...

مـن الجيـد أننـي تمرنـت كثـيراً عـلى التجميـد، بقـي لي التركيـز عـلى القفزات الزمنية!!

***

أخـذ الأمـر وقتًـا أطـول مـما توقعـت أو تخيلـت، مضى الآن مـا يقـرب مـن أربعـةأعوام عـلى وفـاة "يوسـف"، اعتـدت الحيـاة في هـذا الزمـان، اسـتقررت في عمـلي في مشـفى "سـانت مـاري" ولا زلـت أسـكن شـقة "يوسـف" ولم يمـانع صـاحب الشـقة في هـذا، لم أرغـب في أن أتركهـا حتى يعود هو إليها...

"ألفـين" تـزوج منـذ مـا يقـرب مـن ثلاثـة أعـوام، وسـمّى طفلـه باسـم "جوزيـف" تيمنًـا بـ"يوسـف".. لا زال يتصـل بي عـلى فـتراتٍ ليطمـئن عـلى أمـوري، هـو الآخـر لازال يعمـل في المشـفى رغـم أن لـه الآن عيادته الخاصة التي يشارك فيها زميلًا له..

أخـيراً بعـد كـل هـذا الوقـت اسـتطعت أن أنتقـل في الـزمن ذهابًـا وإيابًـا، صـحيح أننـي لم أتقنـه تمامًـا كـما أرغـب، لكننـي لم أعـد أحتمـل الآن انتظارًا أكثر...

أدرك الآن أنـه لأنجـح في الانتقـال عـبر الـزمن عـليّ أولًا أن أقـوم بتجميـد الوقـت والتأكـد مـن ذلـك، ومـن ثـم أركـز تفكـيري عـلى الزمـان والمكـان

الـــذي أرغـــب في الانتقـــال إليـــه، عـــليّ أن أكـــون في شـــدة التركيـــز، تشـــتت انتباهي ولو لبضع ثوانٍ قد يغير الزمن أو المكان الذي أنتقل إليه..

لقـــد عزمـــت أمـــري، الليلـــة ســـأذهب إلى حيـــث فقـــدت "يوســـف" وســـأعود لاســـتعادته، ســـأمنعه مـــن عبـــور هـــذا الشـــارع، وســـأفعلها قبـــل أن تخرج نفسي الموجودة في هذا الزمن من المشفى..

راجعـــت أحـــداث هـــذا اليـــوم في ذهنـــي آلاف المـــرات.. يجـــب أن أحـــرص على عدم حدوث أي أخطاء..

عـــليّ أن أكـــون هنـــاك قبيـــل الثانيـــة ظهـــرًا، ســـأنتظره، سأشـــغله، أعتـــذر منـــه، أفعـــل كـــل مـــا يمكننـــي فعلـــه لأمنعـــه مـــن العبـــور.. ســـأغير مجـــرى الزمن عند تلك اللحظة.

أنفـــاسي تتســـارع وكأنهـــا في ســـباق مـــاراثون، أقـــف عـــلى الرصـــيف الآن حيـــث رأيـــت "يوســـف" يفقـــد حياتـــه منـــذ أربعـــة أعـــوام مضـــت، الصـــمت يســـود حتـــى أننـــي أســـمع صـــدى ضربـــات قلبـــي، الـــذي يكـــاد يقفـــز خـــارج ضـــلوعي، الســـاعة تجـــاوزت منتصـــف الليـــل.. عـــليّ أن أبـــدأ الآن، أغمضـــت عينـــيّ، فليتجمـــد الوقـــت الآن، فتحـــت عينـــاي، لا ســـبيل لي أن أتأكـــد مـــن نجـــاحي في ذلـــك إلا النظـــر في ســـاعة يـــدي -تلـــك التـــي أهـــداني إياها "يوسف" يومًا ما- لقد توقفت عقاربها، أظنني فعلتها...

الآن عـــليّ أن أركـــز، أريـــد أن أكـــون في مكـــاني ذاتـــه قبـــل أربعـــة أعـــوام، الثانية ظهرًا...!!

أغمضت عينيَّ، أشعر الآن بجزيئات جسدي تبدأ عملية الانتقال، أحاول الاسترخاء... لكنني متوترة للغاية، هلا هدأتِ أرجوك... فجأة صوت مواء قطة، تبًا، لقد تشتت انتباهي وفتحت عيناي، هل كانت ساعة يدي معطلة؟ ألم أنجح في تجميد الوقت تمامًا؟ من أين أتت تلك القطة؟

تظلم الدنيا تمامًا حولي...

وفي اللحظة التالية، أنا لا أزال واقفة في مكاني، لكنها الظهيرة،هل ...هل نجحت بالعودة ؟؟!!

أتلفت لأنظر حولي، ياللهول، لقد تأخرت، لقد عدت متأخرةً...

"يوسف" بدأ عبور الطريق فعلًا...!!

***

التاسعة صباحًا، الاثنين، السادس من أغسطس من عام ٢٠٢٠ هذا ما أشارت إليه الساعة المعلقة في بهو الاستقبال بالمشفى، لقد عدت.. عدت في صباح اليوم التالي لليوم الذي قفزت فيه للماضي... لقد نجحت!!! لقد فعلتها حقًا!!

ترى.. هل سأراه الآن ؟

-"صباح الخير"أدي"... كيف حالك اليوم؟".

(أدي؟؟منذ متى يناديني"ألفين" بهذا الاسم ؟؟!!).

-"على خير ما يرام "ألفين".. كيف حالك أنت وحال "ماري"؟"

- "بخـــير ...نســـيت أن أخـــبرك.. لقـــد اعُتمِـــدت شـــيكات المرتبـــات... تستطيعين الذهاب لقبضها الآن".

-"هـــذا رائـــع ...أشـــكرك عـــلى المعلومـــة.... بالمناســـبة.. كيـــف حال"جو"الآن؟"

-"هههههه..... أنـا مـن يفـترض بـه سـؤالك عـن "جـو" ... أنـت مـن يبيت معه..لا أنا "أدي" ... ألقِ عليه التحية بالنيابة عني"

(أبيـت معـه!! مـا الـذي تغـير بالضـبط خـلال الأربـع سـنوات الماضـية ؟؟!).

-"هههههه..... لم أتنـاول قهـوتي بعـد... لسـت بكامـل تركيـزي.. كنـت أقصد سؤالك عن ابنك"

-"نقـص الكـافيين.. أدرك مـا تعانينـه ..."دانييـل" بخـير.. لقـد بـدأ يتحسن.. أشكرك على سؤالك"

- "لا شكر على واجب ... حسنًا أراك لاحقًا "ألفين" ".

يبدو أنني سآخذ بعض الوقت لأدرك ما أحدثته بتغيير الماضي...

كنـت مـترددة في العـودة لمنـزل "يوسـف"... ربمـا أنـا لا أعـيش هنـاك الآن.. لكـن.. لسـت أدري أيـن أصـبحت أقـيم ...هـذا عيـب تغيـير الأحـداث في مـاضٍ بعيـدٍ نسـبيًا.. يصـعب اسـتنتاج ومعرفـة ماترتـب عليها..

أولجت المفتاح في الباب، وما إن دخلت حتى وجدت فتاة صغيرة - ربما تخطت عامها الأول ببضعة أشهر قليلة- تركض متجهة نحوي، تحتضن ساقيَ بيديها الصغيرتين بحب ... وتناديني"ماما"!!

حملتها وسرت إلى الداخل محتضنة إياها أتأملها، ملامحها إلى حد كبير تشبهني إلا أن عيناها وشعرها يشبهان...

-"حبيبتي لقد عدت مبكرًا اليوم ..."

"يوسف" قد عاد! "يوسف" عاد وينادي حبيبتي!!... من الواضح أنه قد فاتني الكثير!

- "ما الأمر؟ ما بكِ عزيزتي ؟ تبدين.. مذهولة..حائرة.. شيء من ذاك القبيل"

كنت أحملق في الصورة المعلقة على الحائط خلفه، كانت صورة زفاف...!!

صورة زفافي أنا!

ويوسف!

-" "جو"... أنا.. لست أدري ما أقول"

اقترب مني وأخذ يتحسس شعري ومن ثم طبع قبلة على جبيني، أجلسني على الأريكة وأخذ الطفلة مني ثم قال:

- "حسنًا.. لقد فهمت.. لقد عدت لتوك من قفزة زمنية للماضي..صحيح؟"

قالهـا بكـل بسـاطة وكأنـه أمـر اعتيـادي فأومـأت بـرأسي إيجابًـا وأنـا مبهوتة...!!

-"لكم من الوقت؟"

_"أربع سنوات ..."

ابتسم بحنان وقال :

-"أجـل ... أذكـر ذاك التـاريخ ... لفـترة طويلـة بعـدها ظننـت أننـي كنـت أهـذي ... في لحظـة كنـت أعـبر الطريـق ... وفي الأخـرى كنـت ملقـى عـلى جانـب الرصـيف ... لوهلـة رأيـت اثنتـان منـك ... واحـدة عـلى الرصـيف المقابـل... والأخـرى قادمـة مـن الاتجـاه المعـاكس تـركض نحوي...!!!

أوتعلمين؟ رأيتك تبتسمين لي وكأنك تنفست الصعداء...

لوحـت لي.. وفي اللحظـة التاليـة كنـت قـد تلاشـيتِ مـن المكـان ... وكأنـك تبخـرت حرفيًـا.. حاولـت بعـدها إقنـاع نفسيـ أننـي كنـت أهـذي ... ولفترة لم أخبرك بمارأيت، لكن"

-"لكن ماذا؟"

-" كانـت تـراودني رؤى - شـبيهة بمـا كنـت تحكينـه لي سـابقًا- عـن حيـاة موازيـة.. سـبق أن عشـت فيهـا.. لكنهـا لم تعـد موجـودة... فيهـا صدمتني سيارتان بشكل متتالٍ.. وتظلم الدنيا بعدها تمامًا"

-"لقد فقدتك ذاك اليوم ... لم أستطع التعايش مع ذلك.، حتى البارحة صباحًا كنت غير موجود زرت قبرك البارحة وقطعت على نفسي عهدًا بأنني سأعيدك ".

اتسعت ابتسامته وقال:

-"وها أنا ذا ..."

ساد الصمت لوهلة أخذت أنقل بصري بين الصورة والطفلة التي أخذت تلعب أمامنا أرضًا..

ومن ثم سألته وأنا أشير إلى الصورة برأسي:

-"منذ متى؟"

-"عامان ونصف الآن ..."

ثم ألقى نظرة باسمة على الطفلة وقال :

-"ورزقنا فرح منذ عام ونصف.."

***

أصبحت لي حياة كاملة في المستقبل -باعتبار الزمن الذي أتيت منه- زوج وابنة تتمناهما أي فتاة في الدنيا، أشعر بالأمان هنا حيث لا محاكمة ساحرات، لا خطر يتهدد حياتي...

للمرة الأولى منذ بت أدرك من أكون أشعر بأن لي قيمة ما، أنني محبوبة..

أشعر وكأنني نلت أخيراً المكانة التي أستحق..

لكــن الــدنيا تمنحــك الحيــاة في هيئــة رِزْمَــة منوعــة تكمــل بعضــها بعضًــا بنســب مختلفــة، فلــن تجــد شــيئًا أبــدًا تصــل نســبته لمئــة بالمئــة، وعليــك أن تــرضى بالنســب الممنوحــة لــك، فــإن حاولــت تغيــير إحــداها فــاعلم أن جميعها سيتغير، أو على الأقل بعضها بالتبعية..

لطالمــا أرّق منــامي مــا قرأنــاه في مــذكرات "تومــاس هدســون"، عــن كون"أديلينــا" - في زمنــه - اتهمــت بالســحر وأعــدمت حرقًــا نتيجــة اختفــاء"دورثي كاســت"، أي أننــي الســبب في إعــدامها، مــن المؤكــد أن اختفــائي-في شخصــية"دورثي"- نــاتج عــن أننــي لم أعــد لــنفس التــاريخ الذي رحلت فيه إلى الماضي!!

كثــيراً مــا فكــرت في أنــه يجــب عــليّ العــودة لأعيــد الأمــور لنصــابها مجددًا، أعيد كل شيء لما كان عليه!!

لكــن...، هــذا يعنــي أن أتخــلى عــن حيــاتي بأكملهــا، عــن ســعادتي مع"يوسف" و"فرح".... هذا يفطر قلبي ....

وإذا مابقيــت، فسأضــع رأسي عــلى الوســادة كــل ليلــة عالمــة أننــي تسببت في حرق بريئة حتى الموت!!

فقط لأن قدرها جعلها أختًا غير شقيقة لي...

فقــط لأننــي فكــرت في مصــلحتي فقــط، وكيــف أحمــي نفسيــ ولم أضــع اعتباراً لكيف سيؤثر ذلك على حياة البقية...

الحــيرة، صــارت عنوانًــا لحيــاتي، العبــث في خــط الــزمن لــه عواقــب!والآن صرت أشــك أن الــرضى عــن التغيــير المســتحدث ســيكون تامًــا، دومًــا

سيكون هناك شيئًا آخر تود تعديله، نسبة أخرى ستختل في نظرك، ناهيك عن اختلاط الذكريات في رأسك، تعدد الخطوط الزمنية التي نشأت كنتيجة تغيير حدث ما في الماضي ستربكك في كثير من الأحيان، حتى أنك ستفقد القدرة على ربط الأحداث بعضها ببعض، وإذا ما كانت حدثت فعلًا في الخط الزمني الذي تتواجد فيه الآن...!!

حاولت..حاولت كثيرا أن أتجاهل حقيقة أن ما حدث ل"دوروثي" هو بسببي أنا ولا أحد سواي، كنت قد بدأت أحيا الحلم الذي لطالما تمنيته.. زوج أحبه ويحبني.. ابنة هي اسم على مسمى"فرح"...

لم تعد حياتي مقتصرة على القصر وضفة القناة...

اندمجت تماما في هذا العالم، في هذا الزمن،وكأنني ولدت فيه، لم أعد أشعر أني دخيلة بعد الآن..

هل أرغب حقا في العودة ؟! ما الذي أملكه في الماضي يستحثني لأعود؟! لا شيء سوى أمي.. ولا أظن أنها ستكره ليّ السعادة، لكن ...تلك الكوابيس لا تفارقني،"دوروثي" تقاوم الغرق ومن بعدها تصرخ وهي تحترق حية...

عدة شهور مرت ، وفي كل ليلة استفيق مذعورة انتفض من البكاء...

كنت أظن أن اندماجي في الحياة الجديدة سيشغلني عن الشعور بالذنب، كنت أحاول التظاهر أمام نفسي أنه لم يكن بيدي حيلة، أنه إما حياتي أو حياتها وغريزة البقاء ستقدمني عليها في كل مرة...

لكـن انعكـاسي في المـرآة كـان يخـبرني أن هنـاك سـبيلا آخـر، أكـثر وعـورة ربما، لكنه سينقذ حياة كلتينا...

-" "جـو"... هنـاك أمـر مـا أرغـب في الحـديث عنـه معك...يشـغل بـالي منذ فترة الآن"

-"كلي آذان مصغية... أهو عن أحداث الأربع سنوات الماضية؟...

أم عن لماذا كنت متقبلًا للغاية فكرة أنك تسافرين في الزمن؟"

-"هذا وشيء آخر.."

-"هاتِ ما لديكِ "أدي" ..."

-"تـذكر مـا كُتـب في مـذكرات "تومـاس هدسـون"؟... عـن محاكمـة "أديلينا" وإعدامها حرقًا بتهمة السحر؟"

-"أجل.. ماذا بشأنها؟"

-"لا أسـتطيع إبعـاد هـاجس أنهـا أعـدمت بسـببي.. لـو لم أقـم بالتبـديل منـذ البدايـة..أو لـو أننـي عـدت إلى حـاضري في نفـس وقـت اختفـائي.. لربما ظلت هي على قيد الحياة... أعني.. لم تعدم في الماضي.."

-"لـو أنـك مـا قمـت بالتبـديل وأخطـأت في الحضـور للمسـتقبل... لمـا التقيتـك أو عرفتـك قـط.. لمـا أسرتنـي في شـباك حبـك... لمـا حظينـا ب"فـرح".. طفلـة تحمـل ملامـح كلينـا..تكفي ابتسـامتها لتشـع البهجـة كأشعة الشمس حولها..."

قاطعته قائلةً:

-"أعلم هذا "يوسف" ... أعلم ... لكن.."

احتضن رأسي وربت عليّ بحنان وهو يقول :

-"لكن تشعرين بالذنب"

أبعدته عني برفق وقلت والدموع تحتبس بين أجفاني :

-"أجل ... لا أستطيع تحمل فكرة أن أحدهم قتل بسببي ... أضف أنها أختي.. حتى وإن لم تكن شقيقتي.. حتى وإن لم تعاملني يومًا من هذا المنطلق ..."

ساد الصمت لوهلة قبل أن يقول :

-"ما الذي تفكرين فيه؟"

-"لا بد لي أن أصلح ما أفسدت .... على أن... أعود لأعيد التبديل مرة أخرى"

أطرق"يوسف" برأسه أرضا وغمغم قائلًا :

- "ألا يعني ذلك أن.. كل ما مضى سيُمحى؟... سيمسي الأمر وكأنني لم أعرفك يومًا.. ستختفي"فرح" ... أنت ستختفين"

انفجرت الدموع من عيناي ،وارتميت في أحضانه،كنت أحتمي به، لكم أشعر بالضعف والعجز الآن، أمران أحلاهما مر ولا بد لي أن اختار...!!

- "منذ استطعتِ إقناعي بمن تكونين.. وأنا أحمل هم تلك اللحظة... تلك المذكرات ذكرت عودتك بعد اختفائك لفترة من الزمن.. كنت أتمنى ... لست أدري..لكن يبدو الآن أن الاختيار قد حسم مسبقًا"

رفعت رأسي إليه بعينين دامعتين وبصوت مختنق قلت:

-"سأعود إلى هنا ... لابد أن أفعل.. لا أقدر على الحياة دونك ... سأعود لأستعيدك واستعيد "فرح" ... أعدك أن أبذل قصارى جهدي ..."

استطاع يوسف رؤية التردد باديًا في عينيَ، كان متفهمًا الأمر، كان يدرك أن ذلك ليس هينًا أبدًا.. صحيح أنني لا أذكر أحداث السنوات الأربع الماضية، حيث أنني لم أعشها فعليًا، إلا أنني أدرك الصورة العامة، وعشت فيها الشهور الماضية منذ عودتي الأخيرة، أدرك جيدًا حبنا المتبادل لبعضنا البعض، أدرك وجود ملاك صغير يجمعنا، أدرك أن عودتي تلك المرة - إن عدت - تعني نسف كل ذلك، محوه من الخط الزمني الذي سينشأ نتيجة التبديل مرة أخرى، ستُمحى ذاكرته عني ولن يعود هناك وجود ل "فرح"، لكنني في الوقت ذاته أيضًا لم أعد أحتمل شعور الذنب!!

لذا بعد صمت طال بيننا قال :

"لأنني أذوب فيكِ عشقًا عليّ أن أتخلى عنكِ، أسمح لذاكرتي أن يتم محوها ... عليّ أن أدعمك، تمامًا كما فعلت منذ أول يوم التقيتك فيه، عليّ أن أسمح لقلبي أن يتمزق في صمت، سأساعدك على اتخاذ قرار تم حسمه منذ ثلاثمائة عام وبقي فقط نقله لخانة التنفيذ..".

لقد انتهى الأمر، قرار مشترك أخذته و"يوسف"، غدًا سأرحل، سأعود لزمني، غدًا سيتلاشى كل ما أحببته يومًا، سأبيت الليلة

محتضـــنة "يوســـف" و "فـــرح"، أستنشـــق رائحـــتهما، أحتضـــن ملامحهـــما بعينيَ ...

أن تعلـــم أن ذلـــك هـــو الوداع..هـــو الفـــراق الأخـــير، تحـــاول أن تتـــزود بمـــا يكفـــي مـــن الأحبـــة.. لكـــن أتعلـــم؟ لا شيء أبـــدًا يكفـــي، مهـــما نلـــت، ســـتبقى راغبًـــا في المزيـــد، ألا لعنـــة الله عـــلى الفـــراق، اشـــتاقهما مـــن قبـــل أن أتركهما، فما يكون حالي بعد الآن، رحماك ربي بحالي ...

أشـــعر بـــألم يعتصرـــ قلبـــي كلـــما فكـــرت أني مفارقـــة لهـــما، أني مقدمـــة عـــلى محوهما من حياتي في خط الزمن ...

يا ويلي، لا ... لن أستطيع.. لن أستطيع ... لم لا أكون أنانية ؟

"دورثي" حظـــت بفرصـــتها في عـــالم آخـــر، زمـــن آخـــر مـــوازٍ، هـــي لم تهـــتم لحالي، وإن رأتني أحرق حية أمامها لم يكن ليهتز لها طرف ...!!

لمَ أهـــتم أنـــا ...لمَ؟! ربمـــا ... لأننـــي أنـــا الســـبب؟ لـــو لم أبـــدل، أو لـــو عـــدت لحـــاضري بـــدلًا مـــن المســـتقبل لم تكـــن هـــي لتعـــاني، لكـــن لمَ كُتـــب عـــليّ أن أكـــون أنـــا دومًـــا مـــن تعـــاني؟، لمَ عـــليّ أن أكـــون أنـــا مـــن تضـــحي؟ مـــن ترحـــل ؟؟، لمَ عليّ أن أخسر من أحب...؟؟!

هذا ليس عدلًا...!!!

أنفجر بالبكاء الصامت حتى لا يشعرا بي..

أتـــأملهما نـــائمين بأحضـــاني، ربـــاه كـــم أذوب فـــيهما، كيـــف لي أن أتخـــلى عـــنهما؟! ... لا أضـــمن أني قـــادرة عـــلى العـــودة، وإن عـــدت، مـــا أدراني إن

كنت قادرة على كسب حب "يوسف" مجددًا ... كيف أضمن أني سأستعيد "فرح"؟!!

سأعود ...سأعود للحظة التبديل، أنتظر مغادرتي.. مغادرة نفسي التي قامت بالتبديل الأول، وأعيد كل شيء كما كان، سأتحرك بسرعة، وأعود للمستقبل.. أعود لأستعيد ما أخاطر به الآن،عليّ أن أقاوم نفسي، أن أجبرها على العودة .... لا سبيل آخر، أردت أن يكون آخر ما تقع عليه عينيَ هو"يوسف" و"فرح"...أردت أن أبقي حافز العودة أمام عينيَ، لن أستغرق الكثير، سأستعيدهما ...

بدأت عملية تجميد الوقت، كنت أرتجف، أنتفض فعليًا من الذعر، التردد يتملكني...

تلك النظرة في عيني "فرح" ... تلك البراءة...

ذلك الحب ...!!

أنا أخاطر بفقدان هذا للأبد...

لا لن أستطيع، لن أستطيع ... لن أعود ... سأوقف الأمر برمته ... لا لن أعود ...

لا.. لا.. لا.. لقد بدأ الانتقال فعليًا...

لا.. لا أرغب في فقدانهما ... لاااا ...

أظلمت الدنيا ومادت الأرض تحت قدميَ لقد فقدت تركيزي تمامًا ... لن أعلم الآن أي زمن سأكون فيه ... لن أعلم إن كنت سأعود يومًا ... أو إن كنت سأحظى بحبهما مجددًا ...

٧ - دورثي كاست تكود

لا أذكر كم مرّ عليّ من وقت وأنا ممددة ها هنا، كل ما أذكره هو أنني قد فقدت تركيزي كليةً بينما بدأت جزيئات جسدي في الانتقال عبر الزمن، ترددت.. أردت أن أتوقف أن أمنح نفسي مزيدا من الوقت للتفكير وإعمال العقل ...

لم أرد ترك يوسف وفرح ...تمنيت لو أن هناك وسيلة ما، مهرب من الفراق وفي الوقت ذاته يضمن لدوروثي النجاة..

لكنه وفيما يبدو قد قُضي الأمر... لست أدرك أين أكون، أو إلى أي عام وصلت ... الشيء الوحيد الذي أنا موقنة منه هو أنني قد عدت في الزمن، الموجودات حولي تشي بذلك ...

حاولت النهوض إلا أن دوارًا عنيفًا كان يكتنف رأسي فعدت للجلوس مستندة بكفي على الأرض العشبية الندية...

"آنسة " كاست"؟! عجبًا خلتك .... حسنا لا يهم، أين كنتِ طوال تلك السنوات؟"

كان ذلك "توماس هدسون"، لم أدرِ متى أو من أين أتى!! وكأنه ظهر من العدم، أو ربما أنا هي من لم تستجمع شتات فكرها بعد...

"في أي عام نحن ؟!"

حدق توماس فيّ بدهشة لوهلة قبل أن يقول مغمغمًا:

" ١٧٣٢، لقد مضت ثمان أعوام مذ رأيتك آخر مرة"

"ثمـــان أعـــوام ؟!!، مـــاذا عـــن دو.. أقصـــد مـــاذا عـــن أديلينـــا؟ أتســـتطيع أن تأخذني إليها؟"

"أديلينـــا ؟!! تلـــك التـــي أُتهمـــت بالســـحر وحُرِقـــت حيـــة بســـبب اختفائـــك؟ بـــالطبع أســـتطيع اصـــطحابك إلى حيـــث نُـــثِرت رفاتهـــا، عنـــد القنـــاة حيـــث اعتادت الجلوس في وقت فراغها"

كانـــت نبرتـــه منفعلـــةً حـــادةً حتـــى وإن حـــاول كـــتم مـــا يعتمـــل بنفســـه، بـــدا لي أنـــه كـــان مقربًـــا منهـــا، كـــما كـــان مقربًـــا منـــي في الخـــط الزمنـــي الأول الذي كنت فيه أنا أديلينا، ربما بعض الأشياء لا تتغير...

"أنـــا.. لســـت أدرِ مـــا أقول..أنـــا آســـفة حقًـــا، لكـــن.. أعـــدك سأصـــلح مـــا أفسدته".

كانـــت نظراتـــه إليّ أشـــبه بســـهام ناريـــة تخترقنـــي وهـــو يقـــول بنـــبرة حـــاول إخفاء الاستهزاء منها:

"وهل يعود الأموات؟ تلك هي السبيل الوحيدة لإصلاح ما أفسدتِ"

"بـــل هنـــاك ســـبيل آخـــر.. فقـــط أريـــد منـــك أن تثـــق بي مجـــددًا، ثـــق بي كـــما وثقت أنا بك فيما مضى".

"عـــ مَ تتحـــدثين؟! لم يربطنـــي وإيـــاكِ ســـوى تلـــك اللوحـــة التـــي رســـمتها لك، هل هذا هو مفهومك عن الثقة؟!"

"لم أعـــنِ هـــذا الـــزمن، في زمـــن آخـــر لم يعـــد موجـــودًا كنـــتُ أنـــا فيـــه أخـــرى، وثقـــت بـــك، كنـــت صـــديقي، الوحيـــد الـــذي تفهمنـــي، الوحيـــد الـــذي استأمنته على سري"

بتوجس قال :

"عن أي سر تتحدثين؟! لم يجمعني وإياكِ أسرار قط"

تحاملت على نفسي ـ لأنهض عن الأرض، ومن ثم اقتربت منه مُشيرة إلى رأسه قائلةً :

"في مكان ما ها هنا أنت تعلم ما أتحدث عنه، ألم تراودك أحلامًا أو رؤى لمشاهد عابرة استشعرت أنك قد عِشتها مسبقًا في حياة أخرى غير تلك التي تحياها الآن؟!

ألا تذكر رؤيتي بمثل تلك الهيئة وقت أن كنت تبلغ الخامسة من عمرك؟! ..."

قاطعني قائلًا بريبة وهو يتراجع بضع خطوات للخلف :

"ذاك كان حلمًا، مجرد حل..."

قاطعته بدوري قائلةً :

"لم يكن حلمًا ...، في مكان ما داخلك أنت موقن أنه لم يكن حلمًا، ألم تتساءل كيف علمت بهذا الأمر؟ لا يبدو ليّ أننا كنا مقربين للدرجة التي تجعلك تقص عليّ أحد أضغاث أحلام طفولتك ...

لقد كنتُ هناك فعلا.."

ظلّ محدقًا بي لفترة لا بأس بها من الزمن قبل أن يقول بصوت منخفض:

"ألا يعني هذا أنكِ ...؟!"

"بـــلى.. أنـــا تمامًـــا كـــما خطـــر بـــذهنك فهـــل ستســـاعدني لأعيـــد الأمـــور لنصابها؟!"

بدا التردد والتوجس على محياه واضحًا بينما قال :

"أيوجد أمامي خيار حقًا؟ أعني ...ألن تلحقي بيّ الأذى في حالة رفضت مساعدتك؟"

"لم أستعمل هبتي يومًا لأذية أحدهم، ولن أفعلها قطعًا مع شخص كان بمثابة الأخ الأكبر في خط زمني سابق"

تنهد بعمق وصمت لوهلة قبل أن يجذبني من يدي قائلًا:

"هيا الآن، لا ينبغي أن يراك أحدهم، يجب أن تتواري عن الأنظار، أعرف مكانا تستطيعين البقاء فيه"

كانت تلك مجازفة، لست أدري حقًا ما الذي جعلني أقدم عليها، ربما تعاملت معه وكأنني لازلت في الخط الزمني الأول، حين كان يعرفني كأديلينا، عقلي يرفض كوني دورثي كاست حيث أنه لم يعاصر ما يفترض به أن يكون ذكرياتها الآن ...

أدرك أنه لازال مترددًا بشأن مساعدتي، كونه يساعدني على الاختباء الآن لا يعني الموافقة الضمنية كما قد يوحي به الوضع، إنما هو يمنح نفسه فرصة ليقيم الأمر، أدرك هذا لأنني أعرفه جيدًا، هو يحاول مدارة انفعالاته وما يدور بخلده، إلا أنه لم يكن بارعًا بذلك يومًا ...

"ها قد وصلنا.."

قالها توماس وهو يشير إلى منزل صغير على أطراف ضيعة السيد كاست، كان هذا منزلي فيما مضى...

ترى هل أمي لاتزال هنا ؟!

"أليس هذا منزل أديلينا ؟! "

أومأ برأسه إيجابًا ومن ثم قال :

"هيا، لحسن الحظ أن الشمس قد غربت منذ فترة، لن يميز أحدهم ملامحك إلا عن قرب"

سرت خلفه أحث الخطى نحو باب المنزل وأنا ألهث قائلةً:

"ألن تمانع أمها؟!"

التفت إليّ بينما يعالج قفل الباب قائلًا:

"المنزل صار مهجوراً منذ إعدام أديلينا، لا أحد يدري على وجه التحديد ما حلّ بأمها، البعض يقول إنها هربت خوفًا من إعدامها هي الأخرى -ففي نظرهم أن الابنة كما أمها- وآخرون يدّعون أنها قد ماتت بحسرتها على وحيدتها، لكنني أرجح هروبها فإن كانت قد ماتت فأين ذهب الجثمان؟!"

شعرت وكأن كلماته قبضة فولاذية تعتصر قلبي، كنت حمقاء متسرعة لا تكترث سوى لنفسها وحسب، لم أفكر في توابع فعلتي، لم يخطر ببالي قط أن أحدهم قد يتأذى بسببي، الأنفاس تؤلمني، والدموع تحتبس بين أجفاني، ليت شيئا لم يكن... لا تلك أمنية خرقاء أخرى.. فحينها لم أكن لأعرف يوسف، حتى وإن كنت أشعر بالألم الآن لفقدانه فقد حظيت بحبه لفترة لا بأس بها من الزمن...

لا بد وأن أعيد الأمور إلى نصابها ...

حينها ربما أمكنني العودة لكسبه في حياتي مجددا، ربما فرح أيضًا...

رأسي تكاد تنفجر...

"ألن تدخلي؟!"

قالها وهو يشير للباب المفتوح مُخرِجًا إياي من عاصفة الأفكار التي اجتاحتني، فأومأت برأسي إيجابا بينما أدلف داخلا ...

"إذن.. ما الذي كنتِ تعنينه بقولك إنك ستعيدين الأمور لنصابها؟!وما قصدك بخط زمني سابق؟!"

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أحاول استجماع الكلمات قبل أن أقول ناظرةً لعينيه مباشرة:

"لديّ القدرة على الانتقال في الزمن، وفي كل مرة أُحدِثُ تغييراً في الماضي ينشأ خط زمني جديد يمحو بضع أحداث ويضيف أخرى، في المرات القليلة الأولى كنت أغير أفعالًا بسيطة ذات تأثير ثانوي محدود...

أما التغيير الأخير فقد نشأ عنه محو خط زمني بأكمله..

خط زمني كنت فيه أنا أديلينا -الابنة غير الشرعية للسيد كاست-، فيه أنت كنت بمثابة أخي الأكبر،وأنت من حذرني بشأن افتضاح أمري كوني ساحرة، كانت الأقاويل والشائعات تتناثر بين النسوة في السوق، كما أنك أنت من كان صاحب فكرة عودتي في الزمن ..."

قاطعني ملوحًا بيده في الهواء قائلًا بشك :

"انتظري لحظة فحسب.. كيف تكونين أديلينا ؟! هذا لا يعقل.. أنتِ "دورثي كاست"، ألا تعتقدين أنني أستطيع التمييز بينك وبينها ؟!"

"أخبرتك أن ذاك الخط الزمني قد تم محوه تماما، وبالتالي فإن ذاكرتك عنه قد مُحيت هي الأخرى،ومع هذا فإن عقلك الباطن لازال يحتفظ ببضع لمحات من تلك الحياة السابقة، التي لم تعشها في الخط الزمني الحالي..

في أحلامك أنت لا زلت ترى لمحات من تلك الحياة..حياة كنت تعرفني فيها كأديلينا؛ أليس كذلك ؟!"

حدق في بدهشة لوهلة قبل أن يقول :

"كيف علمتِ بشأن تلك الأحلام؟!"

"أنت كتبت ذلك في مذكراتك"

"لم أطلعكِ يوما على مذكراتي"

"قرأتها في المستقبل من حيث عدت اليوم كانت معروضة في متحف، أعلم أنك تحملها معك دومًا؛ لذا هلا كتبت فيها الآن عن عودة"دورثي كاست"؟ "

بدا متشككًا بينما يخرج دفتر مذكراته من جيبه،ويخط فيه بعض كلمات وهو يقول :

"لست أفهم، حقًا أنا عاجز عن فهم ما تتفوهين به!!والغريب أنني أجد في نفسي ميلًا لتصديقك، ميلًا لا أجد له أي تفسير منطقي"

"لا تكتب تفاصيل عما أخبرتك به، فقط اذكر العودة لا شيء سواها"

رفع رأسه إليّ متسائلًا فأكملت قائلةً :

"ذاك لغرض ما في نفسي، سأشرح كل شيء لاحقًا"

هزّ رأسه بعدم اقتناع لكنه لم ينبس ببنت شفة، لحظات وانتهى من الكتابة،ومن ثم رفع أوراق مذكراته في مواجهتي لأقرأ ما خطه فيها قائلًا :

" أهذا جيد كفاية؟!"

اومأت برأسي إيجابا قائلةً:

"تماما كما رأيتها في المستقبل"

"تدركين أنني لا أستوعب حرفًا من حديثك.. أليس كذلك ؟"

ابتسمت قائلةً :

"بلى، لكنك ستفهمه كما فعلت سابقًا"

"ربما.. تبدين واثقةً...حسنًا عليّ الرحيل الآن، سأعود لاحقا ببعض الطعام والملابس"

ثم أشار لملابسي قائلًا:

"فملابسك تلك عجيبة حقا! وستلفت الانتباه لو أن أحدا رآكِ"

" هل ستثق بي وتساعدني توماس؟!"

صمت لوهلة مطرقًا برأسه أرضًا قبل أن يقول :

"ستحتاجين لتنظيف المنزل فهو مهجو.."

قاطعته قائلةً:

" أجب السؤال من فضلك توماس"

فنظر إلى عيني مباشرة وقال :

"لست أعلم ما إذا كنت أستطيع الوثوق بكِ بعد، لكنني أميز الصدق من الكذب حين أسمعه ...

وأنتِ تبدين مقتنعة تمامًا بما تقولين وتصدقينه بكل جوارحك؛ لذا...فسأساعدك حتى أتبين حقيقة الأمر"

أومأت برأسي قائلةً :

"هذا يكفيني للآن"

لم أرغب في إضاعة المزيد من الوقت، على الرغم من شعوري بالإنهاك وعدم الاتزان؛ نتيجة فقدان التركيز أثناء انتقالي في الزمن إلا أنني أردت الإسراع في العودة للحظة التبديل الأولى،على تصحيح الوضع ومن ثم أفِ بوعدي ليوسف...

حاولت الاسترخاء الليلة لأكون في كامل تركيزي عند بزوغ الفجر، سأعود لأتأكد من عودة الأمور لنصابها، ومن ثم أشق طريقي للعام ٢٠١٦.. للحظة التي يُفترض بيّ مقابلة يوسف فيها...

كنت أحاول نيل قسط من النوم حين تناهى لمسامعي طرقات خفيفة، شعرت بالقلق، خفت أن يكون أحدهم قد انتبه لوجودي هنا، فنهضت على أطراف أصابعي متسللة للنافذة المجاورة للباب، ومن خلف الستائر المهترئة اختلست النظر، وعلى ضوء القمر البدر رأيت توماس هناك واقفًا يحمل سلة صغيرة يتلفت حوله في قلق وهو يواصل الطرق بتوتر...

ما إن فتحت الباب حتى دلف بسرعة للداخل مغلقًا إياه خلفه قائلًا بهمس منفعل:

" لمَ أخذتِ كل ذلك الوقت؟!ماذا لو رآني أحدهم واقفًا بمنتصف الليل أمام بيت ساحرة مهجور، أتدركين تبعات ذلك عليّ ؟!"

غمغمت قائلةً:

" أعتذر، كنت على وشك النوم، أضف إلى ذلك أنني لم أكن أعلم أنه أنت"

زفر بشدة محاولًا تخفيف توتره، ثم قال متلفتًا حوله واضعًا السلة على أقرب منضدة:

"لا يبدو ليّ أنك قد أزلت ذرة غبار واحدة، كيف ستجلسين في المكان هكذا ؟!"

"لن أطيل البقاء، سأغادر فجرًا، لم يكن يُفترض بيّ العودة إلى ١٧٣٢، وجهتي كانت ١٧٠٦ "

مطّ شفتيه بعدم اقتناع قائلًا :

"هل يعني ذلك أنك ستسافرين في الزمن ؟!"

"نعم!كما أخبرتك سابقا..سأعيد الأمور لنصابها، سأعود كما كنت..أديلينا"

حاول أن يقول شيئًا لكن بدا أنه لا يجد كلمات مناسبة تعبر عما يدور بخلده؛ فآثر الصمت وأخذ يُخرِج من السلة بعض الأقمشة البيضاء الملفوفة حول بعضها البعض وفطيرة ...

"رائحتها شهية.. تشبه كثيراً تلك التي كانت تعدها لي أمي في صغري"

التفت إليّ قائلًا:

"لكن.. اعذريني.. أمك قد توفيت أثناء ولادتك"

"تلك دوروثي، توماس صدقني أنا هي أديلينا"

"أو تعلمين ... رغم غرابة الأمر وعدم منطقيته إلا أنني أصدقك"

لم يكن من عادة توماس أن تتحول قناعاته بهذه السرعة، بدا ليّ الأمر غريبًا للغاية، فتساءلت قائلةً :

"ما الذي بدل رأيك ؟ لم آتيك ببرهان على صدق كلامي فما الذي جدّ بالأمر؟!"

ابتسم وهو يمد يده لي بقطعة من الفطيرة قائلًا :

"بل فعلتِ ...

أمك بخير وآمنة ... هي من أعدت تلك الفطيرة خصيصا لكِ احتفاء بعودتك، كانت تعلم منذ لحظة التبديل الأولى أنكِ أنتِ ابنتها، ما من أم ستعجزعن معرفة من نما في أحشائها، علمت أن السحر قد تدخل وآثرت تركك تحظين بالفرصة لرؤية النتائج بنفسك ...فمن يخوض التجربة ليس كمن يسمع عنها...

علمت أنك ستعودين في وقت ما، كانت تنتظرك وأخبرتني منذ اختفائك كدوروثي، كانت تثق بي كما تفعلين"

قاطعته قائلةً وأنا أشعر بدهشة حقيقية:

"مهلا.. مهلا قليلًا.. لست أفهم، أيعني هذا أنك لحظة رأيتني ..."

قاطعني بدوره قائلًا:

"كنت قادمًا من أجلك، ألم تستغربي وجودي في هذا المكان الخال في مثل ذاك الوقت؟!"

"وكيف علمت ...؟!"

لم أجد كلمات مناسبة أصيغ بها كل تلك التساؤلات التي دارت برأسي؛ فآثرت الصمت، لكن بدا أنه أدرك ما أصبو إليه فقال وهو يشير بعينيه ليده التي مازالت ممدودة بالفطيرة وهو يقول:

"أمك أخبرتني، يبدو أن رابط الدم يجعلها تشعر بأثر سحرك في الأجواء"

تناولت منه الفطيرة وبدأت التهمها في نهم قائلةً ما بين القضمات:

"لمَ لمْ تخبرني سابقا؟ أنك تعلم؟ كيف علمت هي بالأساس بأمر التبديل؟! يُفترض بالجميع أن تُمحى ذاكرتهم وتتبدل لتوائم مع التغير المستجد!"

"الجميع عدا من يملكون هبة سحر حقيقية، فما بالك بمن أورثتك تلك الهبة عبر صلة الدم التي تربطكما، هي احتفظت بكلتا الذاكرتين، وانتظرت الوقت المناسب لتخبرني"

غمغمت قائلةً:

"هذا يفسر الأمر قليلا، لكنك لم تجب سؤالي.. لمَ لمْ تخبرني؟ لمَ تظاهرت بالشك؟"

"لم أكن متظاهرًا، بضع تساؤلات كانت تدور بخاطري، ماذا لو أن أمك كانت مخطئةً؟ ماذا لو أنها ادعت أن دوروثي هي أديلينا لتعوض شعورها بالفقد؟ لا تنسي

أنها لم تخبرني إلا بعد اختفائك، وبعد إتمام عملية الإعدام؛ فكان يجب أن أتأكد بما لا يدع مجالًا للشك، لا تكفي بعض ومضات حياة سابقة في الحلم للتيقن"

هززت رأسي متفهمةً ومن ثم سألته بينما ازدردت اللقمة الأخيرة :

"لمَ لمْ تأتِ معك؟ وددت لو أراها"

"هذا خطر في الوقت الراهن، تعلمين لو أن أحدًا رآها، أو مجرد علم بوجودها ها هنا فسيتم إعدامها على الفور"

طأطأت رأسي أرضًا لوهلة ومن ثم سألته بخفوت قائلةً:

"هل كنت مقربا منها؟!"

"مِن مَن؟!"

"أختي ..."

"أجل.. كنا صديقين"

حاولت الابتسام وأنا أقول:

"لذا كنت محتدًا عليّ، لأنني السبب.."

قاطعني قائلًا بينما أخرج ثوبًا من السلة ناولني إياه :

"ستعيدين الأمور لنصابها، لن يتأذى أيا كان، أعلم هذا يقينا في مكان ما داخلي...

ارتدِ هذا حتى إذا رآكِ أحدهم لم يستغرب هيئتك.. هو ثوب أمكِ بالمناسبة، كانت تحتفظ به من أجلك"

ثم صمت لوهلة قبل أن يقول:

"سأغادر الآن حتى لا تلحظ زوجتي غيابي، وأتمنى حين يأتي الغد أن أكون في خط زمني جديد يكون فيه الجميع بأمان"

إنه الفجر، السماء ملونة ببضع درجات من الأحمر والبرتقالي تندمج مع اللون السماوي؛ لتشكل لوحة بديعة من صنع الخالق، الشمس وقت الشروق لطالما سهرت فقط لأتأملها، أعشق الشروق وكأنه سيحمل لي بداية جديدة مغايرة لوتيرة الحياة، لا شيء سوى النسمات الباردة وزقزقة العصافير، شعورعارم بالاسترخاء غمرني، ذلك هو الوقت المناسب، كنت قد ارتديت ثوب أمي فوق ما كنت أرتديه من ملابس القرن الواحد والعشرين، ومن ثم خرجت لأقف أسفل الشجرة الواقفة خلف المنزل، بعد أن تأكدت من أنه لا أحدًا موجود...

جمدت الوقت- أصبح ذلك الآن أمرا معتادًا وسهلا للغاية- الصمت المفاجئ من حولي أكد أن ذلك قد تم بنجاح، أغمضت عيني مجددًا وأخذت أردد داخل عقلي بتركيز شديد:

"العام ١٧٠٦، مباشرة بعد إتمام التبديل، عند غرفتي"

تيارات متبادلة من السخونة والبرودة تعتريني، أستطيع الشعور بجزيئات جسدي تنتقل، سكون تام ومن ثم ما يبدو كسقوط مفاجئ سريع، وكأن إعصارًا قد سحبني لمركزه ولفظني خارجه بغتة في آن؛ ليعود بعدها السكون مجددًا...

أشعر وكأنني أقف على الماء فاقدة للاتزان...

فتحت عيني لأجدني في الممر أقف أمام باب غرفتي،الذي فُتِح ليخرج منه توماس- طفلًا- والذي ما إن انتبه لوجودي حتى حملق في بدهشة لوهلة، وكان على وشك أن يتفوه بأمر ما، مُشيراً بيده نحو الغرفة خلفه، لولا أن أسرعت نحوه واضعةً إصبعي على فمه هامسةً :

"إن غادرت الآن دون أن تأتي على ذكري لأي من كان؛ فستجد هدية لك في مهد أديلينا الصغيرة غدا..حسنا ؟"

أومأ برأسه إيجابا ولوح لي مودعًا ومضى متجهًا نحو باب المنزل، فسرت خلفه، وما إن اطمأننت وتأكدت أنه رحل؛ حتى تسللت عبر الممر عائدةً نحو الغرفة...

استرقت النظر عبر فرجة الباب؛ لأجد نسختي التي تصغرني بأربع أعوام واقفة جوار المهد، وعلى وجهها أسمى آيات التوتر، التفتت نحو الباب وكادت أن تراني لولا أن سحبت رأسي خارجةً بسرعة لالتصق بالجدار المجاور، أعلم الآن أنني كنت سبب خطأ القفزة الأولى!

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أطل برأسي مجددًا، وكانت هي قد اختفت تمامًا، ربما قد وصلت العام ٢٠١٦، ربما هي مع يوسف الآن!

دلفت للداخل في سرعة مغلقة الباب خلفي، ومن ثم حملت دوروثي من المهد، ورفعتها ليصبح وجهانا متقابلان...

أخذت أتأملها ومن ثم غمغمت لها قائلةً :

"ربما لن تعلمي ولن تدركي أبدا ما حدث، سأظل بالنسبة إليكِ واحدة من الخدم، ولا تعترفين بصلة الدم التي تربطنا، لكنك ستظلين دومًا سبب الكثير من التحولات في حياتي، لم أكن لأمسي هنا لولاكِ، وهذا لو تعلمين لهو أمر جيد، لقد تغيرتُ دوروثي، تغيرتُ كثيراً.. لم أعد أفكر بنفسي فقط، تعلمت تقدير ما أملك، ما ملكت... ولأجل هذا أشكرك ..."

دثرتها جيدًا واحتويتها في حضني ومن ثم ذهبت أتِم التبديل الأخير...

***

إنه العام ١٧٢٤ حيث اختفيت من الخط الزمني الثاني، ها أنا ذا أعود مجددًا إلى هنا... ترى هل التبديل الثاني أعاد الأمور كما كانت؟ هل هذا هو الخط الزمني الأول؟ أم أنه خط زمني جديد تماما؟!

توجهت إلى حيث اعتدت الجلوس على ضفة القناة، وحيث اعتدت لقاء توماس، الذي كان واقفًا هناك بالفعل، وما إن رآني قادمةً نحوه حتى علت الدهشة قسمات وجهه، ولم ينبس ببنت شفة، حتى صرت واقفةً أمامه مباشرةً فقال بصوت منخفض:

"ما الذي حدث؟! لمَ لمْ تنفذي ما قلتِه عن أنك ستصبحين الابنة الشرعية؟ ألم يفلح الأمر؟"

"أهذا يعني أنك تعرفني كأديلينا؟!"

"ما الذي أصابك يا فتاة؟! هل أصابكِ الخوف من افتضاح أمرك بلوثة جنون؟!"

"سأعتبر هذا إيجابا إذن ..."

"أدي.. ما الذي أصابك؟!"

"الكثير توم ... الكثير ولن يمكنني أن أقصه عليك كله"

"أستدعين الحيرة تتآكلني؟ حقا ؟!"

"فلنختصر الأمر في أن التبديل قد نجح وفشل في آن، مهما غيرت في الأحداث فلن أكون راضية"

كان على وشك التفوه بشيء ما حين قاطعه صوت أمي قادمًا من بعيد تقول هاتفةً :

"ها هي هناك يا سيدي، ها هي الابنة التي جلبت عليّ العار!"

تلونّ وجه توماس وهو ينقل بصره ما بيني وبين أمي، التي كانت مقبلة نحونا وبصحبتها عدد من رجال الإكليروس وخلفهم عدد لا بأس به من الناس! ومن ثم تمتم قائلًا :

"ما.. ما الذي تفعله أمك؟! ماذا أخبرتهم ؟!"

لم أدرِ كيف أجيب تساؤلاته لكنني قلت :

" أتذكر هدية تُرِكت لك في مهدي صباح اليوم التالي لمولدي؟ هل حصلت عليها ؟ ألاتزال بحوزتك؟"

بدهشة منفعلة هتف هامسًا قائلًا :

"ما علاقة هذا بأي شيء؟! أتدركين الموقف العصيب الذي أنتِ فيه؟"

نظرت في اتجاه أمي والقوم بصحبتها، كانوا يقتربون بسرعة مجدين الخطى نحونا، فالتفت نحوه مجددًا قائلةً:

"أرجوك أجبني توماس"

بحنق قال :

"أجل لا زلت أحتفظ بها"

"هلا رسمتها من أجلي؟ ثم ذيل اللوحة بإمضائك..أرجوك توماس من أجلي...

وأمر آخر.. لا تدافع عني، لا تُظهِر حتى أنك كنت تعلم بشأني.. تظاهر بالدهشة.. بالغضب، لا أرغب أن تلقى حتفك بسببي، أيا كان مصيري فأنا قد تقبلته، صرت أوقن أن هناك منحة في قلب أي محنة"

التمعت الدموع في عيناه بينما قال:

"أيتها الحمقاء الغبية كان يُمكن أن تنقذي نفسك"

"سبق وفعلت يا صديقي ... سبق وفعلت"

مع آخر حروف جملتي كان رجال الإكليروس يحاوطوننا ويقبضون على ذراعيَ كلتيهما بقسوة بينما أحدهم يقول:

"أديلينا ابنة جوان ...أنتِ مُدانة بممارسة السحر بناءً على شهادة من أمك،وعليه فقد صدر الحكم بإعدامك حرقًا!"

***

فيما يتعلق بتهمة السحر فالحكم يُصدر بمجرد الاتهام، المحاكمة هي أمر شكلي فقط لإظهار أن هناك عدل بحق المتهم، والعدالة ما هي إلا مظهر صوري ليتغنى المغيبون بأنه حتى تابعوا الشيطان -كما قيل لهم- يحظون بحقوق...

لذا ...ها أنا ذا.. في منتصف الساحة مقيدةً إلى عمود خشبي مرتفع، أسفله بعض من الحطب وأوراق وأغصان الأشجار الجافة، رائحة الكيروسين المنبعثة من أسفلي تزكم أنفي...

أمامي كان القس يمنح أمي بركاته يعدها بالخلاص وبجنة الرب؛ فقد دلتهم على شيطان ساحر، فهي في نظرهم لم تسمح بخداعها وقدمت الكنيسة على من كانت ابنتها قبل أن يستحوذها الشر، من ثم ربت على كتفها وأشار لها بالوقوف وسط الجماهير التي أتت تشهد الإعدام...

أخذت أتصفح الوجوه المتراصة أمامي، أنظر بأعينهم الممتلئة بالغل والشماتة، وكأنما بيني وبينهم ثأر دفين!

عينا أمي هي الوحيدة ربما من كانت تحمل نظرات القلق والحب، أجل الحب هذا لا يتعارض مع ما فعلته، ففي نظر الإكليروس الحرق سيطهر روح الساحرة ولا تعود

ملكًا للشيطان، وبعض العامة يظنون أن روح الساحرة قد ترتاح في مثواها الأخير، وحتى إنها قد تُقبل في الملكوت فقد تطهرت بالنيران...

بادلتها النظر ومن ثم أغمضت عيني لوهلة، رددت فيها بداخل عقلي رسالة وددت لو أنها تسمعها:

"أعتذر أمي عن كل ما سببته لكِ من متاعب، بقصد أو بدون، سأفتقدك كثيرا، سأفتقد حضنك، وفطيرتك التي لن أجد لها مثيلًا في أي زمن كان، كوني بخير لأجلك قبل أن يكون لأجلي، تستحقين منح نفسك الأولوية، فقد تحملت الكثير فيما مضى"

سمعتُ صوتها يتردد في داخل رأسي قائلةً:

"ستنالين خلاصك اليوم صغيرتي من حياة لطالما كرهتيها، لكنني أعلم أنكِ تعلمتِ مما رأيته فيها، أتمنى أن تكون حياتك القادمة أفضل حالًا من تلك، كوني فيها بخير لأجلي.. قبل أن يكون لأجلك"

فتحت عيني لأجدها تبتسم إليّ من بين دموع تساقطت رغمًا عنها على وجنتيها، وغير بعيد عنها وقف توماس متظاهرًا بالجلد، لكن وجهه المحتقن وأنفه المحمر كانا يفضحانه، حاولت طمأنته عبر نظراتي، لكن بدا أنه لا يراني عبر سحابة الدموع التي غشت عينيه...

صعد القس على منصة خشبية موضوعة إلى جواري، ثم وجه كلامه إليّ بصوت جهوري، بينما نظر إلى الجمع المتجمهر قائلًا:

"أديلينا ابنة جوان.. اطلبي السماح والمغفرة من الرب على خطاياكِ، تبرأي من الشيطان ..."

قاطعته بنبرة حازمة ووجه حرصتُ على خلوه من التعبيرات قائلةً:

"لم أتبع الشيطان لأتبرأ منه، أما عن الخطايا فهذا بيني وبين الخالق هو يعلم أنني استغفر عن كل ما ارتكبت عن عمد وبغير، فلتستغفروا أنتم عن أبرياء قتلتموهم بغير دليل"

انتفخت أوداجه واحمر وجهه غضبًا مع كل حرف أنطقه ليصيح في النهاية بغضب:

"صه أيتها الساحرة، ذاك اللعين يتحدث على لسانك، فلا تذكري الرب وتدنسي ذكره"

ثم هبط من على المنصة مشيراً للجلاد قائلًا:

"ارسلها للجحيم إلى حيث تنتمي!"

ظل وجهي خاليًا من التعبيرات في حين كنت أنتفض من الداخل ذعرًا، قلبي ينبض بقوة حتى أنني أكاد أشعر به يقفز خروجًا من بين ضلوعي!

ها هو رعبي الأكبر يتحقق حرفيًا! أنا مقيدة وعلى وشك إعدامي حرقًا بتهمة السحر... لكن الغريب في الأمر -الذي لم أتوقع قط حدوثه في مثل ذاك الوضع- أنه في مكان ما داخل قلبي كنت أشعر بالسعادة، لن يتأذى أحد بسببي الآن.. لا دوروثي ولا أمي، لقد حرصت على ذلك...

أستطيع الآن أن أشتم رائحة الدخان الذي بدأ يعمي بصري، ألقيت نظرة أخيرة على الجموع أمامي، التي تعالت صيحاتهم تهللًا، السيد كاست كان بينهم، رأيته يدس شيئًا ما في يد القس، الذي أعطى الأمر ببدء الإعدام، أمي تمسك بيد توماس ويدها الأخرى على فمها ودموعها تنهمر، أما توماس فقد بدا أن الصدمة عطلت حواسه؛ فوجهه كان جامدًا باستثناء الدموع التي انسابت ببطء على وجنتيه...أغمضت عيني بقوة، وحاولت كتم أنفاسي حتى لا أستنشق مزيدًا من الدخان... بغتة توقفت كل الأصوات من حولي، ساد الصمت تمامًا، وبدأت الأرض تميد من أسفل العمود المقيدة

به.. دوار عنيف يعصف برأسي، تيارات ساخنة وباردة تنتاب جسدي ... ومن ثم لا شيء..لا شيء على الإطلاق،وكأنني سقطت في الفراغ ... أهكذا يكون الموت؟!

***

٨- هل ...؟!

"وهذه أيتها السيدات والسادة القطعة الأخيرة لمزاد الليلة، لوحة تعود إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام مضت؛ حسب تقدير خبرائنا..

اللوحة تمثل بورتريه لعائلة من ثلاث أفراد الأب والأم وطفلة، ربما أكملت عامها الأول بالكاد وغير معروف على وجه الدقة التاريخ الذي رسمت فيه، ولا الأسرة التي رُسمت لها اللوحة، الغريب أن طابع الملابس لا ينتمي مطلقا لتلك الحقبة الزمنية ويبدو أقرب لملابس عصرنا الحالي، رغم أن اللوحة تحمل توقيع"توماس هدسون".. أشهر رسامي البورتريه في "لندن" خاصة في الفترة من (١٧٥٥-١٧٤٥) للميلاد -وتم التأكد من صحة التوقيع، وانتمائه لهدسون عبر الاختبارات اللازمة لمثل تلك الحالات- هذه اللوحة عُثِر عليها في منطقة"باندل هيل".. ولا تنتمي لأي من مجموعاته، التي تم بيعها في ثلاثة مزادات منفصلة فيما مضى.، يبدو-وذلك حسب رأي خبرائنا أيضا- أنها لوحة من بدايات"هدسون"،وربما قبل أن يتتلمذ على يد"جوناثان ريتشاردسون"... لكن هذا لا يمنع أنها قطعة فنية أثرية قيمة.. لذا نفتتح المزايدة لراغبي اقتنائها ..."

مع آخر حروف جملة "أدريان جونز" المسئول عن قاعة مزادات العاصمة، كان يوسف يقف أمام اللوحة مذهولًا متسائلًا كيف يمكن للملامح أن تتطابق بهذا الشكل المذهل؟

فغمغم بينه وبين نفسه ساخراً قائلًا:

"لم أكن أعلم أن لي أصولاً انجليزية، ربما أخذت هذه اللوحة، وطالبت بالجنسية معتبراً إياها إثباتا"

لم يغادر يوسف المزاد إلا واللوحة بحوزته، فقد أسرته من الوهلة الأولى، التي رأى فيها المنشور المجمع لمعروضات اليوم، ومنذ بدء المزايدات وهو ينتظر الإعلان عنها...كان سعيدًا بها كطفل تُرِك في متجر حلوى، وقيل له انتق ما شئت بدون حساب...حملها عائدًا لمنزله وعلقها في المدخل فوق(الكونسول) الرخامي ومن ثم جلس في مقابلها يتأملها مطولًا قبل أن تلفِتَ دقات الساعة انتباهه لوجوب المغادرة للحاق بموعد مناوبته المسائية...

"إذن أيها المبذر ... يبدو على وجهك السعادة، لابد وأنك اقتنيت شيئًا فنيًا آخر أليس كذلك؟".

ضحك يوسف في سعادة وهو يجيب قائلًا:

"بلى.. ولن تصدق، للوهلة الأولى تظن أنني المرسوم في تلك اللوحة"

رفع ألفين حاجبه ومن ثم قال ساخراً:

"هل دفعت مالًا لأحدهم ليرسم وجهك القبيح هذا؟!"

"لا أيها السخيف، هي لوحة مرسومة منذ ثلاثمائة عام على الأقل، لأسرة من ثلاث أفراد -أبوين ورضيعة - الأب هو نسخة مني تماما!! ... وبالنسبة ل" قبيح" فليس صحيحًا إن الجميع يشبهونك يا صديقي"

بدهشة حقيقية قال ألفين:

"ثلاثمائة عام!!ونسخة منك أنت ؟!"

ثم اقترب من يوسف واضعًا يده على جبهته قائلًا:

"هل أنت مصاب بالحمى أو ما شابه؟!"

أزاح يوسف يده ضاحكًا ثم قال:

"تعال لمنزلي وسترى بنفسك أيها المتحاذق"

"سآتي وماري قطعًا لأثبت أن هوسك هذا قد أصابك بالجنون، أوتعتقد أني سأفوت على نفسي هذه الفرصة؟!، بعد غد الغداء سيكون عندك..اتفقنا؟"

"إن كنت أنا محقًا والشاب في الصورة يشبهني -وأنا أعلم أنني كذلك- فالغداء على حسابك"

"حسنا.. إلى بعد غد إذن"

عدة أسابيع مضت منذ اقتنى يوسف لوحته، تعلق بها كثيراً حتى أنه خصص لها وقتًا يوميًا ليتأملها!

وتطور الأمر معه حتى أنه بات يحلم بتلك الفتاة في اللوحة...

"أراها كثيراً ألفين،وكأنما كنت أعرفها في حياة سابقة"

"ألم أخبرك أن هوسك سيفضي بك للجنون!"

"أنا جاد ألفين!"

نظر ألفين إليه مستنكراً ومن ثم قرر مجارته قائلًا:

"حسنا أخبرني عن أحلامك تلك!"

"تارة أراني معها في القطار متوجهين إلى ديفون،وتارة هي تعمل هنا معنا في المشفى، و ..."

"وماذا؟! أكمل ..."

"وتارة أنا متيقن أنها زوجتي وتلك الصغيرة في اللوحة ابنتنا"

لوح ألفين بيده في الهواء وهو يكاد يقع أرضًا من الضحك وهو يقول:

"حسنًا حسنًا ... لا أنكر أن ذاك المرسوم في اللوحة شديد الشبه بك، لكن ما تقوله قد فاق حدود الخيال يا صديقي، نحن لسنا في فيلم أو رواية خيالية ما، هذا العالم الحقيقي يا رجل وما تسرده غير منطقي على الإطلاق"

قطب يوسف حاجبيه عبوسًا وهو يقول متأففًا:

"أنا هو المخطئ لإخبارك بأي شيء كان.. لم أقل قط أن هذا واقع أيها الأحمق، لكن الأمر غريب حقًا!"

كاد ألفين أن يتفوه بأمر ما لولا أن قاطعته إحدى الممرضات قائلةً:

"دكتور"ويليامز" يستدعونك بالاستقبال"

فأشار إليه ألفين قائلًا:

"سأذهب لكن سنكمل ترهاتنا تلك لاحقا"

على فراش الكشف خلف إحدى ستائر غرف الاستقبال كانت تجلس هي، مبعثرة الشعر، يحمل وجهها وذراعيها آثار سحجات وكدمات، نظراتها زائغة تائهة غير محددة الاتجاه، كانت تنتفض من الداخل للخارج، نبض قلبها أشبه بزلزال فاقت قدرة الأجهزة على قياسه...

دلف ألفين الغرفة وهو يسجل بعض الملاحظات في الأوراق بين يديه بينما قال دون أن يرفع عينيه:

"مرحبا سيدتي..سأكون طبيبك المعالج لهذه الليلة أنا دكتور"ألفين ويليامز" هلا بدأنا باسمك، سنك، ومما تشتكين؟"

مع آخر حروف جملته كان قد رفع بصره إليها؛ ليشهق بدهشة ويتراجع خطوتين للخلف هامسًا لنفسه قائلًا:

"يا للسماء.. لقد أصبت بعدوى الجنون منك جو! فتاة لوحتك تجسدت أمامي!!"

تجاهلت هي ردة فعله وكأنما لم تلحظها على الاطلاق وقالت:

"كل ما أذكره أن اسمي هو أديلينا، كنت أسير عائدة لمنزلي حين هاجمني لصان، حاولت مقاومتهما بكل ما أوتيت من قوة، لكن ... حسنًا لست أذكر ما حلّ بي بعد ذلك، أفقت على هذا الفراش هنا، لا أحمل حقيبة أو أوراق ثبوتية أو أيّا ما يمكن أن أستدل به على نفسي، أنا حتى لا أذكر ما هي كنيتي!!...

أشعر بألم شديد في رأسي وفي سائر أنحاء جسدي،ولا أعلم كيف أوصلتني قدماي إلى هنا.."

حاول ألفين أن يخفي أثر دهشته ويمنح نبرة صوته الثبات وهو يقول:

"لا بأس سنكتشف الأمر سويًا.. لابد وأنك تعانين أثر ما بعد الصدمة، سنجري بعض الفحوص وسنقرر معا الخطوة التالية، لا داع للقلق"

ثم التفت للمرضة خلفه قائلًا:

"اخضعيها لتصوير مقطعي على الرأس،وفحوص معملية شاملة، وآتني بها فور ظهورها"

من ثم عاد موجهًا حديثه لأديلينا قائلًا:

"سأقوم بإدخالك القسم الداخلي حتى إتمام الفحوص،وسنعرضك على القسم النفسي"

فأومأت برأسها إيجابا دون أن تنبس ببنت شفة...

اقتربت الممرضة منه هامسة في أذنه قائلةً:

"دكتور ماذا عن التكاليف لا نعلم هل تأمينها الطبي يغطيها أم لا؟"

"ضعيها على حساب دكتور "آدم" لا أظنه سيمانع!"

ثم غمغم بينه وبين نفسه ساخرًا:

"فقد كانت زوجته في الحلم!"

***

" جو.. أترغب في متابعة حالة زوجتك بدلا مني؟! لقد أدخلتها القسم الداخلي، ووضعت كافة فحوصاتها على حسابك"

هبّ يوسف واقفًا من على مقعده غاضبًا في اتجاهه لمغادرة الغرفة وهو يقول:

"اخطأت حقًا حين بحت لك بما يجري معي، فكل ما تفعله هو المزاح والسخرية فقط"

اعترض ألفين طريقه مُوقِفًا إياه قائلًا بجدية:

"حسنًا أنا أعتذر جو، أعلم أنني في العادة أكون سخيفًا مستهزئًا، لكنك اعتدت هذا مني، لم أظن أنك ستأخذ الأمر على محمل الجد!، على كلٍ لم أكن أمازحك بشأن ما قلته منذ قليل، تلك الفتاة التي تحلم بها.. لقد كنت أعاينها للتو!"

نظر يوسف إليه باستنكار فأومأ برأسه إيجابًا وهو يرفع كتفيه ويخفضهما قائلًا:

"يبدو أننا نحيا في عالم هزلي مجنون يا صديقي، ما إن تظهر نتائج فحوصاتها سأطلعك عليها واصطحبك لرؤيتها؛ لتتأكد بنفسك أنني لا أخادعك"

***

ما إن باتت أديلينا وحيدة في الغرفة حتى تمددت على الفراش وعلى وجهها ابتسامة ارتياح واسعة، ردة فعل ألفين حين رآها أكدت لها أن خطتها تسير في الاتجاه المرغوب، وأن الصدفة لعبت دورها المطلوب في وصول اللوحة ليد يوسف!

أغمضت عينيها وأخذت تسترجع في عقلها الأحداث الأخيرة...

قبل أن تقفز عائدة للماضي في المرة السابقة كانت قد استعادت أحداث التبديل الأول في عقلها آلاف المرات، حفظت التفاصيل وترتيب وقوعها، لذا ضبطت توقيت رجوعها لتصادف توماس-الطفل- قبل عودته لمنزله، أخبرته أنها ستترك له هدية وقد فعلت..

في الخط الزمني الثاني حين عادت وأحضر لها الفطيرة كان يحمل -بِناءَ على طلب منها- بعضًا من الأقمشة التي يستخدمها للرسم عليها وعددًا من فُرش الرسم الجديدة ملفوفة داخلها، وكانت تلك هديتها له طفلًا فيما أصبح بداية الخط الزمني الثالث، بالإضافة لصورة كانت تحمل منها نسختين، واحدة تركتها له مع أدوات الرسم والأخرى احتفظت بها...

لشد ما كان مندهشًا حين رأى قطعة ورقية -غير أي ورق رآه في حياته- مصقولة عليها لوحة مصغرة لثلاثة أفراد رُسِمت بتقنية وألوان لم يرّ لها مثيلا قط، التفاصيل شديدة الوضوح فيما خصّ الملامح والملابس التي كانت غريبة تماما بالنسبة إليه، ولشغفه بالرسم منذ هذا العمر المبكر مثلت له تلك الصورة كنزًا، وربما كانت سعادته بها أكبر بكثير منها بأدوات الرسم ...

كان منبهرًا بها كثيراً وحافظ عليها كحياته ولم يرها لمخلوق أبدًا، أو حتى يتحدث عنها عابراً مع أي من كان، بينه وبين نفسه كان يسميها (هدية القادمة من الحلم)

وطوال سن ي عمره اللاحقة كان يسعى جاهدًا لاكتشاف تلك التقنية في الرسم،ويعمل على الوصول برسوماته لحد الكمال، مما هيئه لاحقًا ليصبح من أشهر رسامي عصره...

حتى أتى العام ١٧٢٤ -الخط الزمني الثالث- عادت أديلينا لهذا الزمن بعد أن تأكدت من إتمام التبديل الثاني بأمان، وتأكدت من حصول توماس على ما تركته له في مهدها، كان أول ما فعلته عودتها لمنزلها لتجد أمها في استقبالها قائلةً بنبرة قلقة وصوت منخفض:

"استعملتِ سحرك مجددا أليس كذلك؟ أحدثتِ أمرا عظيمًا صحيح؟ لقد شعرت بهذا فلا تنكري أدي"

"لن أنكر أمي ... لن أنكر"

"يا للهول.. ألديك أمنية موت يا فتاة؟ يا صغيرتي أنتِ كل ما أملك من حطام هذه الدنيا، ولا أقوى على خسارتك"

اقتربت منها أديلينا محتضنةً إياها ومن ثم ابتعدت قليلًا ليصبح وجهاهما متقابلين وقالت :

"أمي.. أعلم أنك لا تتمنين لي سوى السعادة، وتعلمين الآن الكلام المتناثر بشأني بين النسوة في السوق فيما تعلق بالسيد كاست وبالسحر، وكلاهما في النهاية حكم بالإعدام، هو لن يقبل بنسبي وأوضح هذا تمامًا، والسحر.. حسنًا.. أنتِ تدركين ما أعنيه"

بلهفة قالت :

"إذن فلنرحل عن هنا، نختبئ في أي مكان"

طأطأت أديلينا رأسها وقالت:

"ألسنة الناس سياط في كل بقاع الأرض، لن يرضى عنّا الجميع،وأينما حللنا ستثار الأقاويل"

بتوجس سألتها :

"ما الذي تعنينه؟ أدي ما الذي فعلته؟!"

أخذت تقص عليها ما مرّ بها الأعوام الأربع التي مضت من عمرها، وحتى عودتها ووقوفها أمامها في تلك اللحظة، وختمت كلامها قائلةً :

"لم أجد سوى حل وحيد يضمن سلامة الجميع"

غمغمت أمها قائلةً :

"وما هو ذاك؟"

"عليكِ أن تكوني من يبلغ الإكليروس عني ..."

قاطعتها بحدة قائلةً:

"هل جننتِ؟ أتريدين مني تسليمك بيدي لحتفك؟! مؤكد أن كثرة انتقالك في الزمن قد أثرت على عقلك!!"

"أرجوك انصتي إلي حتى النهاية، تلك الوسيلة الوحيدة لإبعاد الشبهات عنك، لن يمسسني سوء، سأنتقل في الزمن عائدةً للمستقبل، أريد منك أن تشرحي ماهية الصورة لتوماس، ذلك هو سبيلي لاستعادة قلب يوسف، لإقناعه أن بيننا رابطًا قويًا، اللوحة ستحمل ذاكرته الدفينة على أن تتذكر، أعلم أنه أمل ضعيف، لكنه طريقتي الوحيدة، فاللوحة التي كانت سببًا في تعارفنا الأول؛ أمست الآن تحمل ملامح دوروثي نتيجة التبديل الأخير، لو لم يرسم توماس اللوحة التي أطلبها لن يعود لدي ما يثبت له أننا كنا يومًا سويًا،أرجوك اخبري توماس بعد إلقاء القبض عليّ، بعد

اختفائي و ليس قبل ذلك، فلست أعرف ما تكون ردة فعله، أمي .. رجاءَ ساعديني على استعادة زوجي وابنتي في المستقبل"

ومن ثم أخرجت الصورة التي تحتفظ بها مُرية لها إياها، ساد الصمت لوهلة قبل أن تغمغم أمها قائلةً:

"لا سبيل لأثنيك عما برأسك صحيح؟"

هزت أديلينا رأسها نافية قائلةً:

"ربما قُدِر لي أن أحيا الحياة كما تمنيتها يومًا، ربما كل ما عليّ فعله هو السعي لنيلها وحسب"

صحيح أن الأمور سارت تمامًا كما خططت لها، لكن ذلك لم يمنع شعورًا بالقلق من أن يتملكها لاسيما حين كانت مقيدةً وعلى وشك تنفيذ حكم الإعدام بحقها، رهبة الموقف ذاته وخشيتها من ألا تتمكن من القفز في الزمن، من أن تفقد التركيز لأي سبب كان، كانت تنتفض من الداخل رغم أن ملامحها لم تشف أبدًا عما يعتمل بنفسها...

لكن ها هي ذي، في العام ٢٠١٦ -الخط الزمني الثالث-قلبها يرقص طربًا وخوفًا في آن، مجرد خاطر قربها من يوسف يمنحها إحساس الفراشات ذاك في معدتها، مزيج من مشاعر متضاربة، نعم هي على بعد بضع أمتار منه، لكن.. هل سيمكنها استعادة ما كان بينهما؟!

***

" جو..وصلت نتائج الفحوصات.. جميعها طبيعية، لا شيء سوى بضعة كدمات إثر مقاومتها اعتداء اللصين -حسبما قالت- وذاكرتها ممحوة لا شيء فيها سوى اسمها الأول ولمحات عن الحادث وفقط"

تناول يوسف الفحوص من يد ألفين مُلقيًا عليها نظرةً خاطفةً، ومن ثم قال:

"هذا غريب.. لا سبب منطقي يبرر فقدان الذاكرة الانتقائي ذاك! هل حددت لها موعدًا مع القسم النفسي؟ ربما هو أثر ما بعد الصدمة أو ما شابه، ماذا عن مقتنياتها؟ ألم يكن بها بطاقة هوية أو ما شابه؟!"

"نعم لديها موعد في العاشرة من صباح الغد، وفي الواقع لقد فات عليّ فحص مقتنياتها، سأفعل هذا على الفور"

لم يكذب ألفين خبراً وتوجه نحو قسم الأمانات بالمشفى؛ طالبًا الاطلاع على ما كان بحوزتها ساعة إدخالها، نظر الموظف بالسجلات أمامه ومن ثم قال:

"لم يكن بحوزتها سوى ساعة يد وصورة فوتوغرافية صغيرة"

"أرني إياهما.."

وما إن وقع بصره على الصورة حتى اتسعت عيناه دهشةً، وغمغم لنفسه بذهول قائلًا:

"هذا غير ممكن، غير منطقي على الإطلاق، تبًا لك جو لقد أُصِبت بلعنة لوحتك تلك، لقد فقدت عقلي حتمًا ولابد من أنني أعاني هلاوس بصرية من نوعًا ما!"

"عذرًا دكتور لم أسمع ما قلت.."

"سأحتفظ بهذه لوهلة علها تساعد المريضة في استعادة ذاكرتها"

"لا بأس فقط وقع لي هنا إقرارًا باستلامها وبمسئوليتك عن تسليمها للمريضة"

"حسنًا.. كما تشاء.. هاك توقيعي"

***

"جو.. حسنا.. لن تصدقني لكن.."

قاطعه يوسف قائلًا وهو يشير إليه بالجلوس على أقرب مقعد:

"التقط أنفاسك أولًا ... ما الأمر؟!"

أخرج ألفين الصورة ومدّ يده بها ليوسف قائلًا:

"انظر بنفسك ما كانت تحمله معها!"

التقط منه الصورة وظلّ يحدق فيها صامتًا لوهلة، لم يعرف بمَ يفكر لكن أول ما خطر بباله كان:

"ألفين.. أهذه إحدى مقالبك السخيفة؟ هل صورت اللوحة وطبعتها لتنفذ تلك الخدعة؟! أقسم ..."

قاطعه ألفين قائلًا :

"أنا من يقسم أن تلك كانت بحوزتها، انظر للتاريخ المطبوع على الصورة، العام ٢٠٢٠! ألم يكن من الأوقع أن أضع تاريخًا قريبًا؛ هذا لو أن تلك خدعة؟"

"كيف يكون هذا ممكنًا بأي حال من الأحوال؟"

"لن نجد الإجابة سوى لديها!"

فنهض يوسف متوجهًا نحو الباب مشيراً لألفين أن يتقدمه قائلًا:

"ماذا ننتظر إذن.. أرني غرفتها -لو أنها حقا موجودة وليست نسج خيالك أو خدعة سخيفة-.. هيا"

***

ما إن دلفت الغرفة والتقت عيناي بعيناها؛ راودني شعور بالدهشة؛ لأنه حتى لحظة ولوجي الغرفة كنت أظنه مقلبًا من ألفين، مزحة سخيفة من مزحاته، حتى الصورة اعتقدت أنه التقطها بهاتفه م ثلًا للوحتي، ثم قام لاحقًا بتعديلها وطباعتها لكن.. ها هي ذي تلك التي في اللوحة متجسدةً أمامي جالسةً على الفراش! تلك التي يُفترض أنها زوجة نسختي المرسومة!

هاجس غريب انتابني بأن تلك ليست المرة الأولى التي ألتقيها

فيها، ليست المرة الأولى التي أغوص فيها في بحر عينيها هكذا،لكن.. ربما كان ذلك بسبب تحديقي المستمر باللوحة، أو ربما بسبب تلك الأحلام الغريبة، التي لا أجد لها تفسيراً منطقيًا حتى اللحظة! ...

تلك النظرة في عينيها، البريق الذي توهج فيهما ما إن وقع بصرها عليّ! وكأنما تعرفني!

لغة جسدها أوحت لي أنها تقاوم أ مرًا ما بشدة، هي متوترة، لكن ربما ذلك بسبب فقدانها ذاكرتها هذا كافٍ ليثير توتر أيًا من كان...

لم أعد أدري بما أفكر.. كيف للوحة أن تقلب تفكيري وتجعله مضطربًا إلى هذا الحد؟ ...

كان ألفين أول من بدأ الحديث قائلًا :

" فحوصاتكِ كلها على خير ما يرام ، يتبقى فقط التقييم النفسي غدًا ، هذا دكتور ..."

فقاطعته هي قائلةً :

" "جو" ،... هل سيتابع حالتي؟!"

كلما حاولت وضع تبرير منطقي لما يحدث يأتي ما يضرب ذاك التبرير في مقتل، كيف لها أن تعرف اسمي؟!

نقل ألفين بصره بيننا في دهشة و من ثم قال :

" لم أخبرك باسمه، و حتى إن أخبرتك إحدى الممرضات فلن تقول أن اسمه (جو)!!"

تلعثمت لبرهة قبل أن تشير لمعطفي قائلةً:

" لم ألمح سوى الحروف الأولى من الاسم على البطاقة التعريفية"

وددت لو قلت لها"أنتِ كاذبة" لكنني بدلًا من ذلك قررت مواجهتها وحدنا، أستمع إليها، إلى تبريرها بشأن صورة جمعتني وإياها دون أن ألتقيها قط! سأستمع لكل ما ستقوله وحينها أحكم ما إن كان صدقًا أم كذبًا ...

فالتفت لألفين قائلًا :

" هلا تركتنا لبعض الوقت ألفين؟"

فأومأ برأسه إيجابا رافعًا حاجبيه و مشيراً بيديه في الهواء بلا معنى بينما يغادر الغرفة ...

سحبت كرسيًا لأجلس مقابلها، و من ثم قلت ببطء :

"الحرف الأول من الاسم على البطاقة التعريفية (y) و ليس (J) ، لذا...

لا تتظاهري بمعرفة الاسم من خلال البطاقة "

شعرت أنها محتارة مترددةً تفتح فمها لتنطق، لكنها تعود لتطبقه مجددًا وكأنها تحاول انتقاء الكلمات بحرص، ومن ثم بدا في عينيها وكأنما حسمت قرارًا ما ومن ثم قالت :

"ربما كنت أعرفك سابقا"

" ألم تخبري ألفين بأنكِ فاقدة للذاكرة؟ أم أن تلك كذبة؟ و كيف لكِ أن تعرفينني، هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها"

" ليست الأولى .."

حاولت تمالك نفسي و من ثم قلت :

" ما الذي تعنينه؟!"

شعرت أنها ترددت قليلًا قبل أن تقول :

" لو أنني أخبرتك الحقيقة فلن تصدق منها حرفًا، الأمر يتخطى حاجز المألوف و المنطق "

أخذت نفسًا عميقًا محاولًا الاسترخاء و السيطرة على أعصابي ثم قلت:

" في الوقت الحالي أنا منفتح على الأفكار اللامنطقية، أنا مصغ لكل ما ترغبين في قوله "

ابتلعت ريقها ومن ثم قالت :

" لست أدري من أين أبدأ ..."

أخرجت الصورة من جيبي مناولها إياها قائلًا :

" فلنبدأ بتلك الصورة .. هلا فسرتِها؟! "

ابتسامة على جانب فمها ارتسمت مرتعشة وسرحت ببصرها لثوانٍ، وكأنما تستعيد ذكرى ما في عقلها، ومن ثم عادت تنظر إلي قائلةً:

" هل ألقيت نظرة على ظهر الصورة ؟"

هززت رأسي نافيا متعجبًا وأنا أقول :

" لا. هل كان عليّ تفقد الظهر؟! في الواقع الصورة وحدها كافية لتذهب بعقلي؛ لأنها تجمعني وإياكِ في حين لم نلتقِ قط، أضيفي أن تلك الصورة ذاتها معلقة في مدخل شقتي!... وخمني ماذا؟! رسمها فنان ما منذ ثلاثمئة عام على الأقل، من المؤكد أنك تتفهمين ما أشعر به الآن أليس كذلك؟!"

دفعت يدي الممدودة إليها بالصورة برفق وهي تقول بنبرة رجاء:

"فقط ألقِ نظرة، ربما سهل ذلك عليّ عملية اخبارك "

على ظهر الصورة كانت كلمات قليلة مكتوبة بخط يدوي ...

خط يدي أنا! أنا واثق من هذا !!

"إلى حبيبتي من الماضي ولطفلتي من الحاضر أتمنى أن نظل سويًا على الدوام في المستقبل ...

المحب لأبد الدهر(يوسف) .

السادس من أغسطس من عام ٢٠٢٠"

" أوليس هذا خط يدك أنت؟!"

ظللت محدقًا في الكلمات أمامي محاولًا استيعاب الأمر، لكن أني لي فعل ذلك؟! هذا خطي وتوقيعي.....لكن التاريخ!! وما يشير إليه الإهداء، كيف ومتى تزوجتها وأنا لم ألتقها قط؟!...

شعرت برأسي يكاد ينفجر من كثرة ما تزاحمت فيه الأفكار، هل أحلامي ...؟! لا لا غير ممكن، رباه لا أستطيع إيجاد تفسير منطقي لما يحدث...

وكأنما سمعت ما يدور في عقلي، فأمسكت بكلتا يدي بين يديها -والغريب أنني لم أسحبهما كما كنت لأفعل في المعتاد- ومن ثم نظرت في عيني مباشرة قائلةً:

" يوسف... أعلم أن الأمر صعب التصديق، أ تفهم تشكك، لكن هناك تفسيراً، غيرمنطقي بمعاييرك، لكن هذا لا ينفي عنه الواقعية "

كنت في هذه اللحظة مستعد دًا لتقبل أي تفسير كان، المهم أن أخرج من تلك الحيرة، لم أشعر هكذا قط في حياتي!، لم أكن متخبطًا وغير قادر على التفكير هكذا! وددت لو هتفت بها قائلًا" ما الذي فعلته بي؟!"

رفعت رأسي ناظراً إليها، متأملًا نظرة الرجاء في عينيها،وكأنها تتوسل لي لأسمعها، لأصدقها، ومن ثم قلت بعد كثير من الصمت لم أستطع خلاله صياغة ما يدور بذهني من تساؤلات:

" أي تفسير هو ذاك؟! أي تفسير يربط صورة التُقِطت في المستقبل بلوحة رسمت في ماضٍ، لم أكن قد ولدت فيه؟ كيف يمكن من الأساس أن يكون هذا التاريخ حقيقيًا، أشعر أنني في لعبة احتيالية كبرى، وأنتظر اللحظة التي يأتي فيها أحدهم قائلًا:(مفاجأة.. لقد انطلت عليك الحيلة) تماما كذاك الفيلم the game "

"أقسم لك أنها ليست حيلة"

وأخذت تسرد علىّ أحداثًا عجيبةً، أخذت تتكلم عن خطوط زمنية موازية، عن زمن موازٍ وجدت نفسها فيه في العام ٢٠١٦ للمرة الأولى، تعارُفنا -حسب قولها- وسفرها في الزمن مراراً والتغييرات التي قامت بها، وعلاقتها بتوماس هدسون، انتهاءَ بطلبها رسم الدليل الوحيد -حسب إدعائها -على علاقتنا في الخط الزمني الثاني، وقفزتها الأخيرة في الزمن لتنهار قواها وتغيب عن الوعي أمام بوابة طوارئ المشفى، المشفى التي قصدت الوصول إليها لأنني فيها !

بتشكك قلت :

" إن كان ما تقولينه صحيحًا فلمَ لا أذكر أيا من ذلك؟!"

" لكل فعل رد فعل.. أنت أخبرتني هذا يومًا ما، أي تغيير في أحداث الماضي حتى وإن كان بعيدًا نسبيًا فلابد وأن يؤثر على الأحداث التالية، وينشئ خطًا زمنيًا جديدًا بدايته من لحظة التغيير، لذا فإن ذاكرتك لا تحمل سوى أحداث الخط الزمني الحالي، في بعض الأحيان قد تراودك ذكريات من خطوط زمنية لم تعد موجودة، قد تأتيك على هيئة لمحات خاطفة أو منام عابر ...

ألم تمر بأي من ذلك؟!"

كيف علمت بشأن أحلامي؟! أيعقل أن يكون ما قصته علىّ حقيقيًا ؟! كيف يمكن لهذا العبث أن يكون حقيقةً ؟!!

ساد الصمت مجددًا واحترمت هي ذلك، بدا لي و كأنها تترك لي برهة من الزمن؛ لأحاول فيها استيعاب كل هذا القدر من المعلومات التي تبدو لأي عاقل كخيال جامح لأحدهم، أشعر و كأنني في فيلم أو قصة ما نُسِجت في عالم خيالي لا يمت للواقع بصلة لكن ...كلماتها الأخيرة عن اللمحات والأحلام أثارت في نفسي ميلًا لمنحي فرصة لخوض التجربة، محاولةً للاقتناع، لم أكن لأصدق بتلك البساطة، تلك أشياء يُسمع عنها، ونراها في الأفلام وحسب، ليس على أرض الواقع..

لذا فقد وجدتني أقول:

" سأسلم جدلًا بفرضية صحة ما قصصته عليّ، رغم أن جانب العقل يرفضه، لكن القلب يود خوض التجربة .. ربما هناك رابط ما مشترك يجمعنا، ربما تقابلت أرواحنا سابقًا قبل بدء الخليقة، سأمنح نفسي فرصة أتعرف إليك فيها، لكن لا تأخذي هذا على أنه وعد بأي شيء"

ابتسمت وتهلل وجهها فرحا قائلةً :

" يكفيني هذا في الوقت الحالي، يكفيني هذا"

ردة فعلها أشعرتني ... بالسعادة! كانت متحمسةً وكأنها واثقة من أن تلك الفرصة ستقودني للتصديق من يعلم.. ربما..

تمت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

تابعونا على الهاشتاج الخاص بنا

#أدباء_٢٠٠٠

وعلى الصفحات الرسمية للدار

https://www.facebook.com/Odabaa2000/

https://www.facebook.com/groups/1686790618200616

https://www.facebook.com/odabaa2000.Publishinghouse